

ملاحظات منهجية وإقتراحات عملية

محمد عز الدين توفيق

الناشر :
مكتبة أسامة بن زيد
15 زنقة أحمد وموسى العكاري
الرباط / الهاتف 94-383

الطبعة الأولى 1408هـ/1988م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله : وبعد :

فإن الله سبحانه وتعالى لمَّا خلق الناس لعبادته ، وجعل ذلك غاية وجودهم ، بيّن لهم ما يتقون ، وأمرهم بأداء حق العبادة على علم .

ولما كان العلم شيئا يكتسب ، ولا يولد مع الإنسان ، فإن من البديهيات أنّ من أراد أن تَسْلَم له عقيدته وعبادته ، فعليه أن يجتهد في تحصيل العلم الموصل إلى معرفة صحيحة بالله تعالى ، ومعرفة صحيحة بما أوجب عليه من تكاليف .

والناظر إلى واقع المسلمين الثقافي يهوله ما يراه من الاضطراب الشديد في ثقافتهم العامة ، وثقافتهم الإسلامية بوجه خاص .

وقد أحدث هذا الإضطراب في المسلمين أضراراً بالغة شملت دينهم ودنياهم على السواء ، فقد لعبت مخططات التجهيل الاستعمارية دورها الهدام ، وأثمرت تلك المؤامرات المبيّتة ثماراً خبيثة ، تجلت في هذا الجيل المسلم الذي ترك دينه

وراءه ظهريا ، بل ناصبه العداء ، دون أن يكلف نفسه أدنَى جهد للتعرف على مقاصده ، والتفقه في أحكامه ، والإطلاع على خصائصه ومزاياه .

ولقد سار بُعد المسلمين عن دينهم في اتجاهات ثلاثة ، اتجاه نحو الشرك واتجاه نحو البدع واتجاه نحو المعاصي ، وإذا كانت الأسباب التي أدت بأغلب المسلمين إلى السقوط في هذه العقبات كثيرة ومتعددة ، إلا أن معظمها يعود إلى الجهل الشديد بالعلوم التي تبين لهم أحكام الإسلام وتعاليمه ، وتعرض أمامهم التعاليم الإسلامية بديلا شاملا على مستوى الفكر والتصور ، والأخلاق والآداب والعبادات والمعاملات ، والمناهج والقوانين .

لقد اجتهد الشيطان في إطفاء مصابيح العلم بين المسلمين ، فلما تأتى له ذلك تمكن منهم في الظلمة غاية التمكن .

ولقد تحول هذا الجهل عند طائفة من المسلمين إلى جهل مركب ، عندما سبق إلى أفهامهم أن ما تلقوه من شذرات عن الإسلام رصيد كاف للانفاق منه مدَى الحياة .

لكن من له صلة بأبحاث العلماء التي بينوا فيها القدر الضروري من العلم بالإسلام ، يدرك أن هذا وهم عريض وخطأ فاحش ، بل إنه كلما تقدمت معرفة المسلم بدينه تبين له أنه في البدايات ، وانكشفت له مساحات جديدة من المجهول الذي لا يعرفه ، وقد أُثِر عن الامام ابن تيمية رحمه الله أنه كان يقول لمن أثنَى عليه بالعلم وغيره .... والله إني إلى الآن أجدد إسلامي ولم أسلم بعد إسلاما جيداً .

ولقد أصبح لزاما على كل مسلم نذر نفسه للمساهمة في انقاذ هذه الأمة من الجهل الذي تردت فيه ، أَن يبدأ بنفسه أولا فيزيل عنها الجهل بالإسلام ليمكنه القيام بدوره على أكمل الوجوه ولا يكون من الرؤساء الجهال الذين يفتون بغير علم فَيضلون ويُضِلون :

«أخرج الشيخان من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال :

إن الله عز وجل لا ينتزع العلم انتزاعا من الناس بعد أن يوتيهم إياه ولكن يذهب بذهاب العلماء ، فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم حتَّى إذا لم يُبق إلا رؤساء جهالا إن سُئلوا أفتوا بغير علم فيَضلون ويُضلون» .

وليس من طريق يبلغ به هذا الهدف الكبير ، إلا أن يَعرف فرض العين وفرض الكفاية من العلوم الإسلامية ، ثم يأخذ نفسه ببرنامج دقيق ينظم به مسيرته بين هذه العلوم .

لابد من هذه الخطوة ليعود للعلم الشرعي الاهتمام اللائق به ، بعد أن أصبح إهماله ظاهرة منتشرة على الصعيد الفردي والإجتماعي .

فعلى الصعيد الفردي أصبح تحصيل المال وكسب المعاش أهم لدَى أغلب المسلمين من تحصيل العلم .

وعلى الصعيد الاجتماعي أصبح الاهتمام والتقدير للعلوم الوضعية هو الغالب على مختلف مراحل التعليم النظامية ، تقليدا للمسلك الغربي في ذلك .

ولقد سارت البلاد الغربية أشواطا بعيدة في العلوم المادية ، لكنها لم تستطع بهذه العلوم أن تبني سوَى مدنية صناعية ، ولم تبن حضارة إنسانية .

والإسلام لا يرضَى لأمته مدنية بدون حضارة ، ولذلك لا يعتبر النموذج الغربي قدوة في كل المجالات ، غير أن المسلمين فشلوا إلى الآن في الارتفاع إلى هذه الغاية التي أراد الإسلام أن يرتفعوا إليها ، فهم لم يحسنوا انتقاء الصالح من علوم الغرب ، فانتقلت إليهم خليطا ممزوجاً خيره بشره ، ونفعه بإثمه . ولم يعتبروا هذا الاقتباس وسيلة فقط ، فلعبت هذه العلوم دوراً سلبيا في إبعادهم عن الغاية التي بها كانوا خير أمة أخرجت للناس .

إن التفوق في العلوم المادية مما يعلو به المسلمون ، لكن الإسلام لا يقنع من أمته بذلك ، بل يريدها أن تجعل ذلك في خدمة الرسالة التي حمّلها بين الأمم والشعوب .

ومن هنا تأتي أهمية العلوم الشرعية ، فهي في الوقت الذي تقوم بترشيد مسار العلوم المادية لتتجه نحو خير الإنسان ، تقوم بربط هذا الإنسان إلى غاية تجعله مقتنعا بهذا المسار ، هذه الغاية هي أنه ليس حر التصرف في هذا الكون ، بل إنه يحمل عهداً وأمانة :

«أَلم أعهد إليكم يابَني آدم ألا تعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين وأَن أعبدوني هذا صراط مستقيم» [يس/ 60/61] .

«إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان» [الأحزاب / 72] .

ولو فهم المسلمون هذه الأهمية التي تكتسيها العلوم الشرعية كحاجة إنسانية ملحة ، وكأداة وحيدة لإنقاذ البشرية من الخطر الذي يهددها بالتقدم العابث الذي وصلت إليه العلوم المادية ، لو فهموا هذا ما بهتت في نفوسهم صورة هذه العلوم الشرعية ، حتَّى أصبحت لدى كثير منهم موضع اهمال أو احتقار ، وحتَّى غدا التخصص فيها عند أغلبهم آخر التخصصات مرتبة .

إن من أهداف الإسلام الكبرَى ، أَن يكون مجتمع المسلمين مجتمع علماء كل شيء فيه – دينيا أو دنيويا – يسير بعلم ، فلا يكون أفراده علماء وجهلة ولكن يكون فيه العالم وأعلم منه .

ولهذا فالأمة الإسلامية الآن في حاجة قبل حاجتها إلى العلوم المادية إلى أمرين مهمين :

أولها : أن يكون مع كل مسلم نصيبه الضروري من العلم بالإسلام ، وهو القدر الذي يصير به مسلما .

وثانيهما : أن يتميز من هؤلاء نخبة تزيد من علمها عن هذا الحد المفروض لتصير مراجع للأمة في دينها ، ولتتولى توصيل الحد المفروض من العلم إلى كل فئات الأمة .

ولست بهذا الكلام انتقص من أهمية العلوم المادية وحاجتنا إليها . ولكن التجربة الواسعة في مختلف البلاد الإسلامية أثبتت أن التخصص في هذه العلوم ليس هو الذي يوجد المسلم في هذه التخصصات . بل إن العلوم الشرعية هي التي تخرج لنا ممن تلقَّى العلوم المادية الطبيب المسلم والمهندس المسلم والصانع المسلم والمسئول المسلم في كل اختصاص .

إن التفقه في العلوم الشرعية يجب أن يسير جنبا إلى جنب مع طلب العلوم الأخرى . وفكرة التخصص في العلوم الإسلامية أو غيرها يجب أن يكون مرحلة تالية لهذه المرحلة الأساسية .

وإذا كانت المناهج الدراسية السائدة الآن لا تقيم الصلة بين العلوم المادية والعلوم الإسلامية بالشكل المطلوب ، فإن كل طالب مدعو إلى مواكبة دراسته التخصصية بدراسة إسلامية موازية . فإن الإسلام بحمد الله لا يخاف عليه من هذه العلوم المادية كما لا يخاف على هذه العلوم من الإسلام . بل إن الخشية التي جعلها الله عز وجل طريق رضاه «رضي الله عنهم ورضوا عنه . ذلك لمن خشي ربه» [البينة / 8] وحصر طرقها في العلم تكون على أتمها عند من قرأ آيات الله الكونية وآياته الشرعية أي عند من أصاب من كلا النوعين من العلوم . قال الله تعالى :

«ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء» .

وهذه إشارة إلى آيات الله في إنزال المطر وهو ما يبحثه علم الأرصاد والفلك ...

«فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها» .

وهذه إشارة إلى آيات الله في إنبات النبات وإثماره . وهو ما تبحثه علوم الزراعة .

«ومن الجبال جُدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود» .

وهذه إشارة إلى آيات الله في الجبال ، وهو ما تدرسه علوم الجيولوجيا والجغرافيا ...

«ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك» .

وهذه إشارة إلى آيات الله في عالمي الحيوان والإنسان وهو ما تبحثه علوم الحيوان والإنسان ...

فتضمنت هذه الآية القرآنية الإشارة إلى آيات الله في الآفاق والأنفس ، وهي موضوع العلوم المادية كلها فإنها علوم كونية (طبيعية) أو علوم إنسانية .

وسياق الآية يأمر بالتفكر في هذه الآيات والوقوف على العبرة الكامنة فيها وهذه مهمة العلوم الشرعية ، فإنها تبين دلالة الآيات التي اكتشفها البحث في إطار العلوم المادية ، سواء الدلالة الاعتقادية أو العملية ، ولذلك قال عز وجل عقب الآيات السابقة :

«إنما يخشَى الله من عباده العلماء» [فاطر / 28] .

فليس علماء الكون أولى بهذه الآية من علماء الشرع ولا العكس ولكنها تشمل كل عالم نظر في آيات الآفاق والأنفس وعلم الحكمة الظاهرة والباطنة فيها . ثم أدرك مقتضَى هذه المعرفة علما وعملا .

وإذا وضح لنا أن العلوم الشرعية هي أساس الانتفاع الصحيح بالعلوم المادية ، فإن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال السلف التي جاءت في شأن العلم والتعلم والتعليم ، إنما تقصد هذه العلوم بالدرجة الأولى وتقصد غيرها تبعا لها .

الفصل الأول

فضل العلم ومنزلته في الإسلام

ليس المجال متسعا لبسط الشواهد القولية والعملية من القرآن الكريم والسنة النبوية ، والسيرة العملية لعلماء المسلمين عن فضل العلم ومنزلته في الإسلام[1] ، فنكتفي بأمثلة قليلة تمثل غيرها فنقول :

لقد ورد في كتاب الله عز وجل قوله تعالى مخاطبا نبيه :

«وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما» [النساء / 113] .

فتعاليم الإسلام من عقائد وشرائع علم عظيم النفع للناس جميعا بل هو العلم النافع بجميع الاعتبارات الدنيوية والأخروية ، وإذا كان فضل الله على نبيه بهذا العلم فضلا عظيما ، فكل من أخذ منه بنصيب ففضل الله عليه عظيم ، وبهذا المعنَى كان العلماء ورثة الأنبياء ، ورثوا عنهم العلم .

وقال سبحانه وتعالى في شهادة عظيمة لأهل العلم :

«إنما يخشَى الله من عباده العلماء» [فاطر / 28] .

---

(1) أنظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر وأبواب العلم في الكتب الصحاح .

والعلم منحة إلهية :

«يوت الحكمة من يشاء ومن يوت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيرا» [البقرة / 269] .

ولأنه كذلك أمر سبحانه نبيه أن يستزيده منه :

«وقل رب زدني علما» [طه / 114] .

وتحصيل العلم جهاد ، ولهذا أمر سبحانه المومنين ألا ينفرواْ للجهاد جميعا ، بل تنفر فرقة لطلب العلم وفرقة للجهاد ، فإذا عادت كل فرقة علّمت الأخرى العلم الذي حصلته في نفيرها :

«وما كان المومنون لينفرواْ كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذرواْ قومهم إذا رجعواْ إليهم لعلهم يحذرون» [التوبة / 122] .

وأما من حديث رسول الله ﷺ فالأمثلة كثيرة منها :

ما أخرجه البخاري ومسلم مرفوعا إلى رسول الله ﷺ :

(من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) .

ومفهومه أن من أراد به غير ذلك لم يفقهه فيه .

وأخرج أبو داوود والترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه من حديث أبي الدرداء مرفوعا إلى رسول الله ﷺ : (العلماء ورثة الأنبياء) .

ومعلوم أنه لا رتبة فوق رتبة النبوة ، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة .

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

(الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) .

وأخرج الترمذي وقال حسن صحيح عن أبي أمامة مرفوعا :

(فضل العالم على العابد كفضلي على أدنَى رجل من أصحابي) .

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ :

(... ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة) .

وأما من أقوال الصحابة رضي الله عنهم ، فنسوق مقالة جامعة لأعلم الأمة بالحلال والحرام ، وأعرفها بالتالي بقيمة العلم معاذ بن جبل رضي الله عنه ، يقول :

(تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يحسنه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، به يُعرف الله ويُعبد وبه يُوحد ، وبه يعرف الحلال والحرام وتوصل الأرحام ، وهو الأنيس في الوحدة ، والصاحب في الخلوة ، والدليل في السراء والمعين على الضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة وسادة يُقتدَى بهم أدلة في الخير تقتص آثارهم ، وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة في خلتهم وباجنحتها تمسحهم ، يستغفر لهم

كل رطب ويابس ، حتَّى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها .

والعلم حياة للقلوب من العمَى ، ونور للأبصار من الظلم ، وقوة للأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ، التفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام ، وهو إمام للعمل والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء)[1] .

وقد جاء عن كثير من علماء السلف تحقير من لا يحمل شيئا من العلم النبوي ، كائنا من كان ، قيل لعبد الله بن المبارك : مَن الناس ؟ قال : العلماء ، قالوا : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد ، قيل : فمن السفلة ؟ قال : الذي يأكل بدينه .

كما كانوا يزنون أيامهم ، بما خلفت من علم نافع أو عمل صالح ، قال أحدهم :

إذا أتى علي يوم لا ازداد فيه علما يقربني إلى الله ، فلا بورك لي في شمس ذلك اليوم .

وقال آخر شعراً :

إذا مر بي يوم ولم أستفذ هدى
ولم أكتسب علما فما ذاك من عمري

وقد صرح العلماء المقتدَى بهم ، أن أفضل الأعمال بعد الفرائض :

---

(2) ذكره ابن القيم في مفتاح دار السعادة . وقال عنه في المدارج جـ 3 «رواه الطبراني وابن عبد البر وغيرهما وقد روي مرفوعا إلى النبي ﷺ والوقف أصح» .

طلب العلم .

قال الإمام أحمد :

الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب .

وقال ابن وهب :

كنت بين يدي مالك بن أنس، فوضعت ألواحي، وقمت إلى الصلاة ، فقال : ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي تركته[3] – يعني إذا صحت فيه النية – .

وأقوال الأئمة تفيد بأن فرض العلم قبل فرض العمل ونفل العلم قبل نفل العمل .

وعموما فإن العلم إحدَى نعم الله الكبرَى التي تستوجب الشكر :

«كما[4] أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ، فاذكروني أذكركم واشكرواْ لي ولا تكفرون» [البقرة / 151] .

ولا يعلم فضلَ العلم إنسان ويكون ذا عقل فيعدل به شيئا آخر ، قال أبو جعفر الطحاوي : كنت عند أحمد بن أبي عمران فمر بنا رجل من بني الدنيا ، فنظرت إليه وشغلت به عما كنت فيه من المذاكرة ، فقال لي : كأنك قد فكرت فيما أُعْطي هذا الرجل من الدنيا ، قلت له : نعم قال : هل لك أن يحول الله إليك ما عنده من المال ويحول الله

(3) انظر هذه الآثار وغيرها في جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ومفتاح دار السعادة لابن القيم .

(4) «كما» هنا بمعنَى «لأن» ومعنَى الآية : لأن الله تعالى أنعم عليكم ببعثة هذا الرسول فيكم يعلمكم فاذكروه يذكركم واشكروا له ولا تكفروه .

إليه ما عندك من العلم ، فتعيش غنيا جاهلا ويعيش فقيرا عالما فقلت : ما أختار ذلك ، فالعلم غنى بلا مال وعز بلا عشيرة ، وسلطان بلا رجال .

وقد كثر في الشعر الإسلامي الوصية بطلب العلم والحث عليه .

قال أبو عبد الله الكلاعي الأندلسي :

ألا فاعلم فإن العلم فرض
وجملته فريضة عالَمينا
متَى ما لم تكن من حامليه
تُكَثِّر من سواد الجاهلينا
وقيمة من ترَى في الأرض يمشي
بقدر دخوله في العالمينا
ومن يك جاهلا همجا رعاعا
فليس له سوَى اسم الآدمينا

وقال بعض الشعراء :

العلم كنز وذخر لا نفاذ له
نِعْم القرين إذا ما صاحبٌ صحبا
قد يجمع المرء مالا ثم يحرمه
عما قليل فيلقَى الذل والحربا
وجامع العلم مغبوط به أبدا
ولا يحاذر منه الفوت والسلبا
ياجامع العلم نعم الذخر تجمعه
لا تعدلن به دراً ولا ذهبا

الفصل الثاني

ماذا يعني العلم بالدين ؟

إذا كان الإسلام هو الشرح المفصل للعهد الذي بين الله وبين عباده ، فإن العلم به يعني العلم بشروط هذا العهد والتزاماته ونواقضه .

فالعلم بالإسلام معناه العلم بغاية الحياة ، والعلم بأحكام الاستخلاف فيها ، والعلم بأسباب النجاة والفلاح بعدها .

والإسلام ليس كلمة تقال باللسان ، لكنه صبغة إلهية تصطبغ بها حياة الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم ، فمن أين للإنسان العلم الذي يعرف به الإسلام ؟ .

والجواب : أن لأحكام الإسلام مصدرين اثنين : من أراد أن يعرف الإسلام لزمه التفقه فيهما ، ففيهما توجد كل أحكامه نصا أو استنباطا .

فالعلم بالدين ينحصر في العلم بكتاب الله والعلم بسنة رسوله ﷺ .

أولا : العلم بكتاب الله :

«وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» [فصلت / 42] .

للقرآن خمسة حقوق يُحَدِّد أداؤُها عند كل مسلم درجة علمه بالكتاب الكريم :

فأولها : أن يواظب على تلاوته فلا يهجره :

«فاقرأواْ ما تيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضَى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله ، فاقرأواْ ما تيسر منه» [المدثر / 20] .

وثانيها : أن يتدبر معانيه ويفهمها على وجهها الصحيح :

«أفلا يتدبرون القرآن» [النساء / 82] .

وثالثها : أن يعمل بما تحته عمل من أوامره ونواهيه :

«قل إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها ، وله كل شيء ، وأمرت أن أكون من المسلمين ، وأن أتلو القرآن» [النمل / 91] .

فالتلاوة هنا تشمل القراءة والاتباع ، بل إن تفسيرها بالاتباع أوجه مِن تلا الشيء إذا اتبعه ، وهو أصل الكلمة في اللغة ، ومعلوم أنه لا يكون اتباع لشيء من القرآن إلا بعد قراءته ، فتكون التلاوة الحقة هي مقارنة القراءة بالاتباع .

ورابعها : ألا يألو جهدا في دعوة من حوله إلى الهدي الذي جاء به :

«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[1] .

---

(1) أخرجه البخاري في فضائل القرآن وأبو داوود في الوتر والترمذي في ثواب القرآن وابن ماجة في المقدمة .

وخامسها : ان يحفظ ما تيسر له حفظه منه ، كله أو بعضه : «الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب»[2] .

وإذا كانت هذه حقوق القرآن الكريم ، فإن أي علم يعين على أدائها ، علم مطلوب ، ومكانته تتحدد بحسب ما يعين به دراسه في حسن التلاوة أو حسن الفهم أو حسن العمل أو حسن الدعوة أو حسن الحفظ .

وتبرز هنا ثلاثة أنواع رئيسية من العلوم الإسلامية :

الأول : علوم اللغة العربية .

والثاني : علوم التجويد والقراءات .

والثالث : علوم التفسير وأحكام القرآن .

ثانيا : العلم بسنة رسول الله ﷺ :

«والنجم إذا هوَى ما ضل صاحبكم وما غوَى وما ينطق عن الهوَى ، إن هو إلا وحي يوحَى» [النجم / 1 – 4] .

والسنة هي المصدر الثاني للإسلام ، وتشترك مع القرآن الكريم في كونهما معا وحيا من الله تعالى معصوما من ضلال الشبهات وغواية الشهوات .

وقد أدرك علماء الإسلام رحمهم الله في وقت مبكر جداً أن السنة قد تتسرب إليها الأحاديث الضعيفة والموضوعة لأنها ليست كالقرآن الذي يكشف بلغته المعجزة أي محاولة للزيادة فيه أو نسبة ما ليس منه

---

(2) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن .

إليه ، فهبوا لجمعها وتمييز الصحيح منها والضعيف في أروع عملية توثيق شهدها التاريخ الإنساني كله .

والسؤال الذي طرحناه عندما تحدثنا عن القرآن الكريم نطرحه هنا أيضا :

فما هي حقوق السنة النبوية ، وما هي العلوم التي تعين على أداء هذه الحقوق ؟ .

يمكن أن نجمل حقوق السنة على كل مسلم فيما يلي :

أولا : أن يطلع على ما استطاع منها وخاصة ما يحتاج إليه في دينه ، فإنه لا يتصور إسلام بدون سنة ، وكيف يتصور وقد فصلت أحكاما كثيرة جاءت مجملة في القرآن الكريم ، بل واستقلت بأحكام كثيرة لم تذكر فيه .

ثانيا : ان يجتهد في فهم ما وصل إليه إطلاعه منها ، فإن حسن الفهم هو الطريق إلى حسن العمل .

ثالثا : ان يعمل بما تعلمه منها ، لأن ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو إقرار أو صفة يحمل في أغلبه معاني الأمر والنهي ، سواء كان الخطاب في ذلك مباشراً أو غير مباشر ، وفي الحديث :

(إذا أمرتكم بشيء فاتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه)[3] .

(3) رواه البخاري في الاعتصام ومسلم في الفضائل والحج والنسائي في الحج وابن ماجة في المقدمة .

رابعا : أن يدعو غيره إلى ما علم منها ويكون لهم قدوة في العمل بها . ففي الحديث :

(نَضّر الله امرءا سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها)[4] .

والأداء كما يكون بالقول يكون **بالعمل** .

خامسا : ان يحفظ ما استطاع حفظه منها . ففائدة الحفظ متعددة الجوانب وأهمها أن مضمون الحديث يكون حاضرا بلفظه في الذهن . وذلك ادعَى إلى الدقة في التمسك بما جاء فيه من جهة . والدقة في الاستشهاد به من جهة أخرى .

ومن لا يجد وقتا لحفظ القدر الكبير . اقتصر على القدر القليل . وقد جمع علماؤنا رحمهم الله الأحاديث النبوية في كتب متفاوتة في احجامها وعدد الأحاديث المذكورة فيها . والمسلم يأخذ منها بحسب طاقته وظروفه .

فهذه حقوق السنة وهي مثل حقوق القرآن تحدّد لكل مسلم درجة رسوخه في العلم بها .

ومن الواضح هنا أيضا أن أي علم يعيننا على أداء حق من هذه الحقوق . هو علم مطلوب ويبرز من هذه العلوم علمان أساسيان :

علم الروايـة :

وهو العلم الذي اختص بدراسة السنة النبوية من حيث السند .

---

(4) رواه الترمذي في كتاب العلم وابن ماجة في المقدمة والمناسك وأبو داوود في العلم وأحمد في المسند .

وهذا العلم موجود في كتب الأحاديث وتراجم الرجال وكتب مصطلح الحديث .

وعلم الدرايـة :

وهو العلم الذي اختص بدراسة السنة النبوية من حيث المتن ، وهذا العلم مبثوث في كتب الفقه وأصوله[5] .

فعِلما السنة الكبيران هما علم الحديث وعلم الفقه ، ولذلك كثرت وصايا العلماء بتحصيلها ، فقد أثر عن الأعمش قوله :

(إني لأرَى الشيخ لا يروي شيئا من الحديث فأشتهي أن ألطمه) .

ونحن نقول : كم عدد المسلمين اليوم الذين يستحقون لطمة الأعمش عليه رحمة الله ؟ .

إن أغلب المسلمين ضيعواْ أنفسهم وضيعواْ الإسلام ، قال المزني : كان الشافعي رحمه الله ، إذا رأى شيخا سأله عن الحديث والفقه ، فإن كان معه شيء ، وإلا قال له : لا جزاك الله خيراً عن نفسك ، ولا عن الإسلام ، قد ضيعت نفسك وضيعت الإسلام .

ومرة أخرى نقول : كم عدد المسلمين اليوم الذين يحتاجون إلى سماع كلمات الشافعي رحمه الله لعلها تنهض بهممهم نحو سنة نبيهم ﷺ ، فإنهم لو خصصوا عشر ما يذهب من أوقاتهم في التعرف على أخبار الفنانين ولاعبي الكرة ورعاع الناس ، لو خصصوا عشر ما يذهب

---

(5) يهتم الفقه والأصول بدراسة الأحكام الواردة في القرآن أيضا .

من وقتهم في هذه التفاهات لدراسة السنة لحملوا نصيبا منها ومن الفقه فيها ينفعهم وينفع غيرهم ؟ .

ودراسة علوم الكتاب وعلوم السنة عبر التاريخ العلمي في الإسلام كان يتم بشكل مترابط ، لتداخل علومها واتصال بعضها ببعض .

وكان الميزان الذي يوزن به العالِم ، أن يُنظر ما معه من ميراث النبوة قرآنا وحديثا ، فإذا لم يكن معه شيء ، فهو لا أَحد ، يُذكر أن أحد خلفاء بني العباس كان يلعب بالشطرنج ، فاستأذن عليه أحد الناس ، فأذن له ، وغطَّى الرقعة ، فلما جلس الداخل قال له الأمير ياعم : هل قرأت القرآن ؟ قال : لا قال : هل كتبت الحديث قال : لا ، قال : فهل نظرت في الفقه واختلاف الناس ؟ قال : لا ، قال : فهل نظرت في العربية وأيام الناس ؟ قال : لا ، فقال الخليفة لجليسه : اكشف الرقعة ، وهيا نتم اللعب وزال احتشامه منه ، فقال له ملاعبه : ياأمير المومنين : نكشفها ومعنا من نحتشم منه قال : اسكت فما معنا أحد . .

الفصل الثالث

ملاحظات منهجية

الآن وقد فرغنا من بيان معنَى العلم بالدين وأهمية هذا العلم ومنزلته في الإسلام نشرع في بيان بعض الملاحظات المنهجية التي تجعل الطرق المتبعة في تحصيل هذا العلم أكثر عطاء وفائدة وتختزل العوائق والأساليب الرديئة التي تسبب في كثير من الأحيان نوعا من الاحباط والنفور يصد المسلم حتَّى بعد أن يقطع مرحلة الاقتناع بضرورة أخذه من هذا العلم .

ولهذا يعتبر الحديث عن هذه الملاحظات المنهجية خطوة طبيعية بعد الحديث الذي احتواه الفصلان السابقان .

وسوف نخصص هذا الفصل للملاحظات النظرية على أن تكون الاقتراحات العملية موضوع الفصل الرابع بإذن الله .

الملاحظة الأولى : بداية العلم نبذ التقليد :

فلا يمكن لمن قيد نفسه بتقليد ما ، أن يزيد خطوة واحدة في علمه ، وكما يتصور التقليد في المذاهب الفقهية والطرق الصوفية ، يتصور في الفلسفات والاديولوجيات المعاصرة فالذي يسبق إلى عقله شيء منها ، فيحاكم إليه المعارف والعلوم ، يحرم نفسه من علم كثير ،

ويفسد على نفسه الصورة الصحيحة لما حصل منه ، كالذي يلبس نظارة ملونة فإن كل شيء يراه ، لا يراه إلا ملونا بلون هذه النظارة التي وضع على عينيه .

والمنهج العلمي المفيد أثناء الطلب أن يدرب طالب العلم عقله على التماس الدليل قبل قبول أو رفض أي جزئية من جزئيات علم معين ، ويجب أن يكون هذا الموقف حاضرا بشكل عفوي وهو يتلقّى مختلف المعارف والعلوم .

الملاحظة الثانية : الإطلاع الواسع شرط في الاستيعاب والعمق في الفهم والنقد :

فكلما زاد إطلاع طالب العلم قل خطؤه ونقص انكاره ، لأن الاطلاع المتواصل يوقفه باستمرار على الجديد الذي كان يجهله ، حتّى إنه سيجد أن العالِم أولى بكلمة لا أدري من الجاهل .

أما الاطلاع الهزيل فهو قرين سطحية النظر ، وصنو اهتزاز التفكير ، وصاحبه بعيد عن الصواب في جل ما يذهب إليه ، إلا أن تكون رمية من غير رام .

الملاحظة الثالثة : الإطلاع على الفكرة شرط في تأييدها أو معارضتها :

ونقصد بالإطلاع الإطلاع الكافي لتجلي الفكرة واتضاحها ، وإلا فكل مؤيد أو معارض لفكرة ما إلا يدعي اطلاعه عليها .

وساحتنا الفكرية والثقافية تعج بهذا الصنف الذي يتحدث عن مذاهب ونظريات وأفكار ومناهج حديثاً ينم عن جهل كلي أو جزئي

بها ، وقد ابتلي دين الأمة وتاريخها ابتلاء شديداً بكتابات هذا الصنف الذي يخوض بغير علم فيما يتشيع له وفيما ينقده ويطعن فيه على حد سواء .

الملاحظة الرابعة : لا يكفي الإطلاع على الفكرة بل لابد من الفهم الصحيح لها :

والفهم الصحيح للفكرة هو الذي يسمح بحكم موضوعي عليها ، وأكثر ما يحصل سوء الفهم لأفكار الغير عندما ينظر فيها الناظر وهو مشحون لصالحها أو ضدها ، فيرى فيها ما لا يراه الباحث النزيه ، ويُقَول النصوص ما لم يقصد إليه كاتبها ، كما يرغم الوقائع على قبول تأويلات بعيدة متكلفة ، وقد عانَى الفكر الإسلامي من هذا الصنف فوجدت اتجاهات جاهلة وأخرى مغرضة تبني اجتهاداتها على التحكم والافتراضات المتكلفة والتأويل المعتسف ، وهذا معروف في التفسير والحديث والتاريخ الإسلامي وغيرها .

الملاحظة الخامسة : الفهم الصحيح لأي علم يستلزم الإطلاع عليه من مظانه الأساسية :

وهذه الملاحظة هي النتيجة الطبيعية للملاحظتين اللتين قبلها ، فلابد من إطلاع واسع ، وفهم سليم ، وهما أمران يتوقفان على نوع المصادر ، فكل علم له مصادره الأساسية التي يوخذ منها ، وتكون بقية المصادر والمراجع في موضوعه فروعا وشروحا لها ، فَمِن توفير الجهد وحسن الفهم لهذه العلوم ، النظر في مصادرها الأساسية قبل غيرها ، والتعامل بعد ذلك مع الدراسات التي تدور حول هذه المصادر بوصفها وجهات نظر يوخذ منها ويترك .

فإذا أراد طالب العلم أن يطلب التفسير ، فإنه ينظر في تفسير الطبري وابن كثير والقرطبي وابن العربي وأشباهها .

وإذا أراد أن يطلب الحديث ، فإنه ينظر في موطإ مالك وصحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن الترمذي وغيرها .

وإذا أراد أن يطلب الفقه ، فإنه ينظر في المغني ومعالم السنن ونيل الأوطار وسبل السلام وفقه السنة وهكذا .

وهذه الملاحظة لا تتخلف فائدتها في أي علم شرعي أو غيره ، وما هذا الضعف في التكوين العلمي عند جمهور المثقفين – رغم وجود التخصصات شكليا في النظام الدراسي – إلا نتيجة لاستثقالهم أخذ العلوم من مصادرها الأساسية ، والاكتفاء بما يرد في مراجعها الثانوية من كتيبات ومجلات وجرائد وبرامج مسموعة ومرئية .

نعم قد يوجد في المراجع الثانوية أشياء لا توجد في الأساسية ، لكن هذا لا ينال من القاعدة التي تقول : «اطلبوا العلوم في مظانها» .

وعندما نقول إن المصادر الأساسية لِأَيِّ علم مُقَدمة على غيرها ، لا نقصد الكتب القديمة دائماً ، لأن هذا ليس مقياسا ، فقد يكون من الكتب الحديثة ما هو أهم في بعض فروع العلم ، كما يكون من الكتب القديمة ما لا فائدة فيه ، وأحيانا تكون مقالات في مجلة ذات قيمة لا تقل أهمية عن بقية المصادر ، وطالب العلم مدعو إلى استفتاء أهل الخبرة ، والرجوع إلى الكتب المؤلفة لهذا الغرض ، لكنه إن لم يهتم بهذه الملاحظة قد لا يوفق دائماً في قراءة الكتب الجديرة بالقراءة ، ويتبين له

في كل مرة يقف على كتاب أجود في موضوع قرأ فيه ما دونه من الكتب ، أن النتيجة كانت تكون أحسن ، لو بدأ بتحري المصادر والمفاضلة بينها في الترتيب والتقديم حسب قيمتها العلمية .

الملاحظة السادسة : صواب الباحث في بعض أبحاثه لا يضفي صفة الصواب على كل انتاجه :

ومهما كان الصواب غالبا على اجتهادات عالم ما ، فإن على طالب العلم أن يفتح ذهنه لقبول وقوع الخطإ منه .

الملاحظة السابعة : موضوعات كل علم تحاكم إلى منهجه :

فكل علم له مناهجه التي تحاكم إليها أبحاثه ، فإذا كانت الفكرة فقهية فإنها تعرض على أصول الفقه وإذا كانت حديثاً عرضت على علم مصطلح الحديث وإذا كانت تفسيرا حوكمت إلى قواعد التفسير ، وإذا كانت تاريخية عرضت على المنهج التاريخي وإذا كانت رياضية عرضت على المنهج الرياضي ، وإذا كانت طبيعية عرضت على المنهج التجريبي ، فإذا أجاز المنهج الفكرة قُبلت وإذا رفضها فهو أعرف بحيثيات هذا الرفض .

أما الخروج بالفكرة من مجال العلم الذي تنتسب إليه لاختبارها بمنهج آخر فإنه يؤدي إلى نتائج غير علمية .

والغموض في طريقة التعامل مع الأفكار المختلفة هو الذي أدَّى إلى اضطراب كثير من طلاب العلم في تحديد موقف علمي واضح من أبحاث العلوم المختلفة ، ومعرفة الحق في النقاط المختلف فيها .

الملاحظة الثامنة : لا نهجر حقا قال به مبطل :

يقول أبو حامد الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال . وقد أنكر عليه بعض معاصريه إيراده بعض المقتبسات من كتب الفلسفة :

(وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم . فإذا كان ذلك الكلام معقولا في نفسه . مؤيدا بالبرهان . ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة فَلِمَ ينبغي أن يهجر أو ينكر؟ فلو فتحنا هذا الباب وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل . لزمنا أن نهجر كثيرا من آيات القرآن وأخبار الرسول ﷺ . وحكايات السلف . وكلمات الحكماء والصوفية . لأن صاحب إخوان الصفا أوردها في كتابه مستشهدا بها ومستدرجا قلوب الحمقَى بواسطتها إلى باطله . ويتداعَى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا بإيداعه في كتبهم .

وهذا وهم باطل وهو غالب على أكثر الخلق . فمهما نسبت الكلام وأسندته إلى قائل حسن فيه اعتقادهم قبلوه وإن كان باطلا . وإن أسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ردوه وإن كان حقا . فأبداً يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق وهو غاية الضلال) .

ومضمون هذا الكلام أن أبحاث أي علم توخذ مجردة عن أصحابها فتوزن بمناهجها فما أجازت منها قُبل وما لا فلا .

لكن هذا الذي ذكره الإمام الغزالي عن أهل القرن الخامس الهجري لازالت له أمثلة عديدة في حياتنا الفكرية . فإنك تجد المثقفين يُقبلون على دراسات وكتابات لو عوملت على ضوء هذه الملاحظة ما بيعت منها نسخة واحدة .

لكن غياب هذا «الوعي» هو الذي يؤدي إلى رواج كثير من الكتب تواطأت ظروف سياسية أو إعلامية على تلميع أسماء مؤلفيها.

وفي أحيان أخرى يكون انتشار كتابات مؤلف ما لِوُلوعه بالمخالفة أو لتمسحه بالموضات الفكرية السائدة أو لاكثاره من بضاعة الكلام، والأمثلة كثيرة في الأدب والفلسفة والإسلاميات وغيرها.

الملاحظة التاسعة: ليس من اللازم لغير المتخصص تتبع كل فكرة في مصادرها وبلغات أصحابها:

ولذلك يجب على طالب العلم أن يبحث عن تلك الدراسات المنهجية والموضوعية التي توفر عليه التعرف على كثير من المذاهب والأفكار والمعارف التي لا يتسع وقته للوقوف عليها في مصادرها الأصلية وبلغات أصحابها.

ولا تتعارض هذه الملاحظة مع الملاحظة الخامسة فإذا قام دارس بشرح فكرة وأبان عن مقدرته في عرض ما لها وما عليها، فإن دراسته هذه تغني غير المتخصص وتفيده.

الملاحظة العاشرة: الإقدام على البحث والتأليف يجب أن يصدر عن مقدرة:

وسواء كان المؤلَّف عرضا لمجموعة من الحقائق أو انتقادا لها، فالمفروض أن يكون كل ذلك عن مقدرة، وساحة التأليف ينبغي أن تصان عن العبث وذلك بالتنبيه المستمر إلى كتابات أولائك الذين لم يستكملوا آلة الكتابة من الإطلاع حتَّى تأخذ مكانها الذي تستحقه بعد نقد موضوعي منصف.

الملاحظة الحادية عشرة : الوضوح والصراحة من سمات البحث العلمي :

فالباحث يمسك قلمه حتَّى إذا تحقق من صحة أبحاثه واستنتاجاته اعلنها واضحة صريحة ، لأنها لا تكون قابلة للفهم والنقد إلا بذلك . وكل إلتواء أو غموض أو تردد في إعلان النتائج يشوش على القارئ ويذهب بالفائدة من البحث .

وقد كان هذا الخلق العلمي من سمات العلماء المسلمين ، فهذا أبو حامد الغزالي مثلا لم يتردد بعد دراسته للفلسفة أن يعلن كفر الفلاسفة في مسائل وابتداعهم في مسائل وصدقهم في مسائل ، فأثبت ما فيه الكفر وما فيه الابتداع وما فيه الصدق .

وهذا ابن تيمية بعد دراسته للتصوف يعلن انقسامه إلى تصوف العلوم والأخلاق وتصوف الرسوم والأرزاق ، وانقسام أهله إلى شيوخ العلم والإيمان ورؤساء البدع والضلال .

ونحن لا نورد هذه الأمثلة الآن لنناقشها ، ولكن كشواهد على الوضوح والصراحة في إعلان نتائج البحث ، وكثير من أعداء الوضوح ينكرون على هؤلاء العلماء وأضرابهم دون أن يتقدمواْ بما يقاوم ما أوردوه من أدلة على نتائجهم .

إن الباحث متَى استيقن صدق نتائج بحثه ، فلا أحسن من إعلانها بكل وضوح .

فهذه ملاحظات منهجية على ضوئها يجب أن يختار طالب العلم

مقروءاته في كل علم ، لأن ما كتب في كل علم كثير ، وبعضه أفضل من بعض ، فهذه الملاحظات عون على النجاح في عملية الانتقاء والاختيار .

الفصل الرابع

اقتراحات عملية

كما تحدث علماؤنا عن حدود العلم الشرعي تحدثوا عن طرق تحصيله ، وقد لخص الإمام ابن القيم هذه الطرق فجعلها ست مراتب : أولها حسن السؤال والثانية حسن الانصات والاستماع والثالثة حسن الفهم والرابعة الحفظ والخامسة التعليم والسادسة العمل[1] .

فمن الناس من يحرم العلم لعدم حسن سؤاله ، إما لأنه لا يسأل بحال كالمستحيي والمتكبر ، أو يسأل عن شيء وغيره أهم إليه منه ، كمن يسأل عن فضول العلم التي لا يضره الجهل بها ويترك ما لا غنىً له عن معرفته .

ولم يكن الاحترام الكبير الذي يكنه الطالب لأستاذه ليحول دون سؤاله ومناقشته هكذا كان تاريخ العلم عند المسلمين ، وَمما يؤثر عن أبي حنيفة أنه كان يعتمد على المناقشة في التعليم واستخراج الأحكام ، وكانت طريقته أن يعرض المسألة على طلابه فكل يبدي ما عنده في حكمها ، فإذا اتفقوا على شيء أمر أحدهم أن يكتبه .

(1) انظر مفتاح دار السعادة .

وقد عرف علماء المسلمين الأسئلة الكتابية والشفوية في مجالسهم العلمية ، وكانوا يؤكدون أهمية السؤال في العملية التعليمية ، يذكر ابن خلدون في مقدمته أن الجامعات المغربية في القرن الثامن الهجري لما أهملت طريقة المناقشة ضعفت الملكة العلمية بين طلابها (فتجد طلاب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون ، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ، ثم بعد تحصيل من يرَى منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاوض أو ناظر أو علم ، وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده ، وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به ، وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك)[2] .

وقد تحدث العلماء الذين كتبوا في هذا الموضوع عن آداب السؤال والمناقشة بما يكفل للأستاذ هيبته وللطالب حرية الرأي وحسن الاستفادة[3] .

ومن الناس من يحرم العلم لسوء إنصاته ، فيكون الكلام والمراء أحب إليه من الانصات، وهذه آفة تمنع المبتلَى بها من علم كثير ولو كان حسن الفهم ، ذكر ابن عبد البر عن بعض السلف قال : من كان حسن الفهم رديء الاستماع ، لم يقم خيره بشره ، واثر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال للحسن ابنه : يابني تعلم حسن الاستماع قبل أن تتعلم حسن الحديث .

---

(2) المقدمة ص 308 .

(3) انظر كتاب «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة .

ومن فوائد حسن الانصات أن طالب العلم يزيد إلى علمه الجديد الذي لم يكن يعلمه وحسن اقباله على معلمه يدعو هذا الأخير إلى النصح في تعليمه وإفادته بما معه من العلم لا يبخل عليه بشيء منه .

ومن الناس من يحرم العلم لسوء الفهم ، والفهم والحفظ دعامتا الطالب في كل علم يحصله ، وقد اهتم علماؤنا بهتين الأداتين وقسموا العلم إلى قسمين «رواية» تعتمد على الحفظ «ودراية» تعتمد على الفهم ، وقد تضمنت العلوم الشرعية هذين النوعين ، وغدا تعلم هذه العلوم موقوفا على استخدام ملكات الحفظ والاستظهار ، جنبا إلى جنب مع ملكات التفكير والفهم، وكما نبغ ما لا يحصَى من علمائنا في الحفظ واستحضار النصوص نبغ مثل ذلك في الاجتهاد الفقهي والقياس الأصولي .

ومن الناس من يحرم العلم لسوء الحفظ ، وقد كان الحفظ عبر التاريخ العلمي للمسلمين أهم أداة لحفظ العلم وصيانته من الضياع والنسيان ، وكان أداة منتشرة في جميع مراحل التعلم وذلك لعدة أسباب منها :

- صعوبة الكتابة والحصول عليها وعلى أدواتها .
- تشجيع الإسلام على حفظ القرآن والحديث وتفضيل حفاظهما .
- احتياج علماء الحديث إلى البحث في الأسانيد وأسماء الرجال وأحوالهم لمعرفة صحة الحديث أو ضعفه وذلك لا يتحقق إلا بالحفظ الكثير .

- نشوء علم اللغة لضبط كلام العرب وتقييده وهو أمر يحتاج إلى حافظة قوية.

ومن هنا كان المحدثون واللغويون أكثر العلماء اعتمادا على الحفظ وأكثرهم إشادة به.

وكما ذكر العلماء أهمية الحفظ ذكروا بعض الطرق المعينة عليه ومنها:

- ترويض العقل (الذاكرة) منذ الصبا على حفظ النصوص النثرية والشعرية، ولذلك كان طالب العلم يبدأ بحفظ القرآن الكريم ومن بعده أمهات المتون الشرعية واللغوية بعضها نثر وبعضها شعر.
- التكرار المتقارب والتكرار المتباعد، فبعد تكرار المحفوظ ورسوخه يعاد بعد مدة حفظه كما كان يفعل طلاب العلم من إعادة حفظ القرآن والمتون المختلفة.
- الجد والمواظبة لأن الحفظ يحتاج إلى التكرار والتكرار مدعاة للملل والضجر.
- المحافظة على الصلوات واجتناب المعاصي لأنها من أعظم دواعي نسيان العلم.
- تصحيح النية في الحفظ وإخلاصها في طلب العلم.
- اختيار الأوقات والأماكن المناسبة لصفاء الذهن واستراحته وخلوه من الشواغل.

ومن الناس من يُحرم العلم بسبب الامتناع عن نشره : فإن من خزن علمه ابتلاه الله بنسيانه ، أما تعليمه فيزيد فيه ، لأن من علّم علما حفظه ، وزادت مسائله وضوحا في ذهنه ، وأوقفه تعليمه ذاك على ما يجهل من قضاياه إما بالوقوف عليها بنفسه وإما بتنبيه من يتلقى عنه .

أخرج الترمذي مرفوعا إلى رسول الله ﷺ : (من عَلِم علما فكتمه ألجمه الله بلجام من نار) قال الترمذي حديث حسن ، وإنما يلجم بلجام من نار لأن الله عز وجل أخذ على العلماء من الميثاق ما أخذ على النّبيين ، أن يبينواْ للناس العلم ولا يكتمونه ، قال الله تعالى : «إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدَى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولائك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون» [البقرة / 159] .

يقول أبو الحسن الماوردي في كتاب أدب الدنيا والدين :

(من آداب العلماء ألا يبخلواْ بتعليم ما يحسنون ، ولا يمتنعوا من إفادة ما يعلمون ، فإن البخل به لؤم وظلم ، والمنع منه حسد وإثم ، ولو استن بذلك من تقدمهم لما وصل العلم إليهم ولانقرض عنهم بانقراضهم ولصاروا على مرور الأيام جهالا) .

ورحم الله علماءنا ، كانوا يقسمون أعمارهم قسمين ، قسم يتعلمون فيه ، وقسم يعلمون فيه ، وكانوا يعظمون العلم أثناء تحصيله ، كما كانوا يعظمونه أثناء تعليمه .

كان الإمام الشاطبي ت 590 فيما يذكر ابن خلكان في فوات الوفيات جـ 1 ص 534 لا يجلس للقراءة إلا على طهارة وفي هيئة حسنة وتخشع واستكانة .

ومن قبله الإمام مالك : كان إذا أراد التحديث اغتسل وتوضأ وتطيب وجلس في صدر مجلسه بوقار وهيبة ، فلما سئل عن سبب ذلك قال : أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ ، ولا أحدث إلا على طهارة ، وكان يكره أن يحدث في الطريق وهو قائم[4] .

وقد قام علماء الإسلام بواجب التعليم بجميع الوسائل التي أمكنتهم ، وقد اشتهر منها :

1 – **الإقراء** : وهو تدريس الأستاذ انتاجا ليس له كشرحه للمتون أو تقريره للشروح .

2 – **الإملاء** : وفي هذا النوع من مجالس العلم يملي العالم الحديث أو اللغة ويذكر سنده ثم يذكر فوائده المبتكرة عندما يشرح ، فتكون أماليه هي : انتاجه العلمي الخاص ، وكان العلماء يتنافسون في «تحطيم الرقم القياسي» لعدد مجالس الإملاء .

3 – **المناظرة** : وهي المناقشات التي تجري بين العلماء مشافهة ومراسلة ، وقد ذكروا لها آدابا تضبط إجراءها وتضمن إثمارها .

4 – **المحاضرة** : وهي الدرس العام في موضوع معين .

5 – **الموعظة** : وهي موضوعات متفرقة يقصد منها التذكير والحث على خير أو الزجر عن شر .

وقد كان انتشار هذه الطرق في نشر العلم سببا في ظهور كتب نفيسة جدّاً ألفها أصحابها من مستملياتهم التي كانوا يذاكرونها مع طلابهم ،

(4) تدريب الراوي للسيوطي ص 137 .

ومن أمثلتها كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر الذي لم يؤلف في الإسلام مثله فقد جمعه مما حدث به في مجلس الحديث الذي كان يعقده لطلاب العلم خلال خمس وعشرين سنة ، حتَّى إن آخر يوم حدث فيه بآخر باب من أبواب الصحيح كان يوما مشهودا في القاهرة (انظر مقدمة الفتح).

ومن الأمثلة أيضا كتاب المبسوط في الفقه الحنفي في أكثر من ثلاثين جزءا فهو مجموع ما أملاه شمس الأئمة السرخسي على طلبته (أملاه على طلبته وهو في السجن «بأوزجند» ، إذ كان محبوسا في الجب بسبب كلمة نصح بها الخاقان ، وكان يملي من خاطره من غير مطالعة في كتاب وهو في الجب وتلاميذه في أعلى الجب وقال عند فراغه من شرح العبادات : هذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني وأوجز العبارات أملاه المحبوس عن الجُمع والجماعات ... وقال في آخر شرح الإقرار : انتهَى شرح الإقرار المشتمل من المعاني على ما هو من الاسرار بإملاء المحبوس في مجلس الأشرار. وله كتاب في أصول الفقه وشرح السير الكبير أملاه وهو في الجب ولما وصل إلى باب الشروط حصل له الفرج)[5].

وكثير من كتب التفسير والحديث والفقه مؤلف بهذه الطريقة ، ولهذا حصلت اختلافات في نسخها حسب رواية كل تلميذ.

لقد كان من عادة من يسمع شيئا عن أستاذ من الأساتذة أن

(5) الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص 158 نقلا عن «الإسلام بين العلماء والحكام» للشيخ عبد العزيز البدري ص 220 . المكتبة العلمية بالمدينة.

يكتب كلمة على ما كتبه يسجل فيها اسم استاذه واسمه هو وتاريخ ذلك ، ويسمى ما يكتبه حينئذ سماعا ، وقد حملت إلينا المخطوطات العربية التي وصلتنا كثيرا من عبارات السماع هذه ، وإلى طريقة السماع يرجع السبب في اختلاف نصوص بعض الكتب التي وصلتنا رواياتها من طرق متعددة ككتاب الموطأ ، فلهذا الكتاب اثنتان وعشرون رواية تختلف زيادة ونقصا .

وعندما يتحدث علماؤنا عن تعليم العلم كوسيلة لحفظه وزيادته لا ينسون التركيز على الإخلاص في هذا التعليم ، والقيام به ابتغاء وجه الله تعالى ، ويذكرون من علامات الإخلاص ألا يقصد التلذذ بجاه الإفادة ومنصب الارشاد ، وألا يحتكر علمه ويكره وجوده عند غيره ، وألا يغضب إن رد عليه شيء من علمه ، وألا يميز بين الناس في تعليمه وألا يلتمس من العلم ما ينسبه إلى الإطلاع الواسع ، وألا يعجب بنفسه ، قال الشافعي رحمه الله (وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم ولم ينسب إليّ منه شيء)[6] .

لكن إن أَخذ عن تعليمه ما يسد حاجاته المعاشية والعلمية فلابأس ، وبهذا يتم التوفيق بين مواقف العلماء الذين يأخذون جرايات وأوقافا على تعليمهم وآخرين لم يأخذوا ، فليس هذا داخلا في التعليم لأجل الدنيا ، لأن نية العالم بنشره للعلم أن ينتشر الدين وتحيا السنة وتموت البدعة ، وتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وهذا فرض كفاية في الأمة ، فلابد أَن تسد الأمة كفايته

---

(6) انظر كتاب العلم في الأحياء ، الجزء الأول .

وكفاية عياله إذا تفرغ لهذا الفرض وهو في هذا مثل سائر القائمين بفروض الكفاية ، فإن استغنَى بمال آخر وانتدب نفسه لتعليم العلم ابتغاء الأجر والثواب فهذا أفضل وأحسن جاء في هامش صفحة 19 من تذكرة السامع والمتكلم :

(بعث عمر بن عبد العزيز يزيد بن مالك والحارث بن أبي محمد إلى البادية أَن يعلما الناس السنة وأجرى عليهما الرزق فقبل يزيد ولم يقبل الحارث وقال ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجرا ، فذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال : ما نعلم بما صنع يزيد بأسا ، وأكثر الله فينا مثل الحارث)[7] .

وقد كان هذا الإخلاص وهذا التجرد وراء العزة التي عاش بها كثير من علماء الإسلام ، فمكنتهم من قول الحق وإنكار المنكر ونصيحة الحكام وإفتاء الأمة وتربية الطلاب على العلم والعمل ، وما أحسن ما قال عبد العزيز الجرجاني :

ولم ابتذل في خدمة العلم مهجتي
لأَخدم من لاقيت لكنْ لأُخدَما
أأشقَى به غرسا وأجنيه ذلة
إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما

ومن الناس من يحرم العلم لتركه العمل به : فإن العمل بالعلم يدعو إلى تذكره قال بعض السلف : كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به ،

(7) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص 167 ، نقلا عن هوامش تذكرة السامع والمتكلم .

وقال غيره : العلم يهتف بالعمل فإن أجابه حل وإلا ارتحل ، وقال بعض العلماء : كيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام **ليخبر به لا ليعمل به** .

وقد جاء في سيرة الإمام أحمد أنه لا يثبت حديثا في مسنده حتَّى يعمل به ، وكذا غيره من العلماء العاملين .

العلم أحد الأمانات التي أؤتمن عليها الإنسان ، في الحديث المرفوع (8) :

(لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتَّى يسأل عن أربع ، عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه ماذا عمل فيه) .

وقد أمر عز وجل بأداء هذه الأمانة وليس أداؤها إلا العمل والنشر ، قال الله عز وجل :

«لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون» [الأنفال / 27] .

وقال سبحانه :

«بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولائك هم الكافرون» [المائدة / 46] .

---

(8) أخرجه الترمذي .

فالعالم أمين على ما استحفظ من كتاب الله ، فعليه أن يخشَى الله فيه بتطبيقه وتعليمه .

وربما سوّف الشيطان العبدَ في العمل حتَّى يموت وما عمل بعلمه ، ولذلك أثر عن مالك رضي الله عنه قوله :

إن طلب العلم لحسن ، وإن نشره لحسن إذا صحت فيه النية ، ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فلا تؤثرن عليه شيئا .

على ضوء هذه المراتب الست سنتحدث عن بعض الاقتراحات العملية التي تفيدنا في تحصيلٍ أفضل وستشمل هذه الاقتراحات الأهداف والوسائل .

أولا : إخلاص النية :

أول هذه الطريق إخلاص النية ، وإفراغ القلب من نوازع الرياء وحب الجاه والمال ويمكن أن نقسم أهداف المسلم في تعلمه إلى :

ا) تصحيح الإيمان وترسيخه ، فإن الإطلاع والقراءة مما يقوي الإيمان ، سواء زادت هذه القراءة من معرفته بالحق أو من معرفته بالباطل .

ب) العمل على وفق الشرع ، وهو هدف لا حَدّ لأهميته وخطورته ، بل إنه أحد أساسين عظيمين قام عليهما الإسلام وعليهما مدار قبول الأعمال : الإخلاص والمتابعة ، والمسلم مادام ضعيف

وأما معرفة كيفية الدعوة إليه : فيدخل فيها جميع الكتب والدراسات التي تبحث في فقه الدعوة ، كالكتب الإسلامية المؤلفة لهذا الغرض ، وكالكتب التاريخية ومذكرات الزعماء السياسيين والعسكريين ، وكالصحف الإخبارية والبرامج المسموعة والمرئية ، والدراسات التي تزيد من معرفة الداعية بواقعه أو تكسبه خبرة في طرق التعامل مع هذا الواقع بما يخدم دينه ودعوته .

ويستطيع المسلم أن يصنف جميع مقروءاته تحت هذه الأهداف الثلاثة فتكون له نية صالحة في كل ما يقرأ ، وهذا أمر في غاية الأهمية ، فانما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء ما نوَى[9] .

وما ذكرناه هو النية العامة وهناك نية خاصة بطلب كل علم على حدة .

ثانيا : إعداد أسماء الكتب وترتيبها :

تحدث العلماء عن هذه الخطوة الثانية ، وبهذا الترتيب ، فذكروا بعد إخلاص النية التحري في الأخذ عن الثقات ، لأن هذا العلم دين فانظر عمن تأخذ دينك . ولهذا لا يكفي المسلم أن يصحح نيته ليعمد إلى كل ما تصل إليه يداه من كتب ودراسات فيقرأه على غير ترتيب ، فالكتب كثيرة ، والعمر قصير ، ومن الكتب ما يستحق القراءة ومنها ما لا يستحق ، كما أن منها الضروري الذي ينبغي أن يعجل ومنها غير

---

(9) قال سفيان الثوري : فتنة الحديث أشد من فتنة الأهل والمال والولد . الإحياء جزء أول ص 58 . وهي قولة بليغة جداً لأن هذه الفتنة ذات وجوه لا تنحصر ، وأشدها الذي يذهب بالإخلاص ، ويفسد النية .

الإطلاع معرض للوقوع في البدع المختلفة ومعرض بسبب جهله للحرمان من ثواب أعمال صالحة كثيرة .

جـ) امتلاك الدليل في الموضوعات الإسلامية ، فالإطلاع الواسع هو الوسيلة الطبيعية للتمكن من لغة الإقناع وهو أمر لا غنى للداعية عنه .

د) القدرة على الإفتاء ، فالمسلم يواجه أسئلة كثيرة من نفسه ومن غيره ويلزمه الافتاء فيها بما يعلم ، وحتَّى توافق فتواه حكم الإسلام الصحيح ، عليه أن يحيط علما بما استفتي فيه ، وطريق ذلك المطالعة والقراءة والتعلم .

هـ) ابتغاء الأجر والثواب ، فإن التفقه في الدين عبادة تفضل كثيرا من العبادات الأخرى التي لا يتجاوز نفعها صاحبها .

ويمكننا أن نعبر عن نية المسلم بشكل آخر فنقول :

إن المسلم يتعلم لثلاثة أهداف :

1 – أن يعرف ربه .
2 – أن يعرف كيف يعبده .
3 – أن يعرف كيف يدعو إلى سبيله .

أما معرفة الله : فيدخل فيها قراءة القرآن الكريم والحديث الشريف وشروحهما وكتب العقيدة ، والكتب العلمية والطبية التي تبحث في الآيات الكونية والنفسية .

وأما معرفة كيفية عبادته : فيدخل فيها جميع كتب الفقه والأحكام والأخلاق والآداب .

الضروري الذي يحسن أن يؤجل ، ولا غنى للمسلم الذي يتاجر بعمره ويضن بدقائقه وثوانيه ، من برنامج دقيق أول خُطواته ترتيبُ المقروءات ترتيبا جيدا ، وهذا تصميم نموذجي وضعناه للتمثيل ويمكن تغيير ما ذكر فيه من كتب إذا تبين للقارئ ما هو أهم منها في موضوعها .

المجموعة الأولى :

ويجب أن تضم هذه المجموعة الكتب التي تُعَرِّفُ بالضروري من الدين ، فيجعل فيها مثلا :

أ) تفسير الجزء الأخير من القرآن الكريم ، فمعرفة معاني السور الواردة في هذا الجزء تعين على تدبرها أثناء قراءتها في الصلوات . وينظر تفسيرها في ابن كثير والظلال وغيرهما .

ب) قراءة رياض الصالحين ، ففيه نخبة صالحة من الأحاديث النبوية .

جـ) قراءة كتاب «الله جل جلاله» و«الرسول ﷺ» و«الإسلام» للشيخ سعيد حوى ، وقد جمع المؤلف في هذه الكتب ما تفرق في غيرها عن هذه الأصول الثلاثة .

د) منهاج المسلم للجزائري وفقه السنة لسيد سابق ، وهما كتابان مبسطان في أبواب الفقه ، ويتميزان بذكر الأدلة وهو أمر يجب أن يتدرب عليه المسلم منذ البداية .

هـ) فقه السيرة للبوطي ، وقد درس فيه مؤلفه السيرة النبوية بطريقة مدرسية تناسب الذي لم يتمرس بعد بالدراسات المعمقة .

و) مختصر منهاج القاصدين للمقدسي وهو تلخيص جيد لإحياء علوم الدين ، أي أنه يملأ فراغا في الجانب الأخلاقي .

ز) العقيدة الطحاوية : بتحقيق الألباني وهي نموذج للمختصرات التي لخصت عقيدة أهل السنة والجماعة .

حـ) جاهلية القرن العشرين : وهو نموذج للون آخر من الدراسات الإسلامية التي تبين موقف الإسلام من التيارات الفكرية المعاصرة .

وهذه المجموعة الأولى قابلة للإضافة والاستبدال والمقصود أَن تضم الكتب التي بها يحصل العلم الضروري بالإسلام علما وعملا ، أي أن المسلم بعد الفراغ منها يستطيع أن يسير في أمور دينه على هدى وبصيرة .

ولابد أَن تراعَى في المجموعة الأولى الكتب ذات الحجم المتوسط والصغير ، حتَّى لا تحدث عند المبتدئ مللا يؤدي به إلى التوقف والانقطاع ، كما ينبغي عند الاختيار مراعاة اللغة التي كتبت بها الكتب لاجتناب تلك التي لا تفهم إلا بصعوبة .

المجموعة الثانية :

وتكون لوائح هذه المجموعة أوسع من الأولى ، ولذلك تصنف كتبها حسب العلوم الإسلامية الأساسية ، وتبقَى كل لائحة مفتوحة لإضافة أي كتاب مهم في بابه ، وهكذا تكون لائحة لعلوم الكتاب وأخرى لعلوم السنة وأخرى لعلوم الفقه وأصوله وأخرى لعلوم العربية وأخرى لعلوم التاريخ الإسلامي ... ونحيل القارئ عند وضع هذه اللوائح إلى كتابين هما : جند الله ثقافة للشيخ سعيد حوى وثقافة الداعية للدكتور يوسف القرضاوي .

وإذا أخذ المسلم حظه اللازم من هذه العلوم كلها ، يمكنه أن يتخصص في علم منها حسب ميوله ومواهبه ، ويصبح ذلك العلم محط اهتمامه وعنايته.

أما الكتب التي يقرأها المسلم خارج العلوم الإسلامية فهذه أيضا لا تشذ عن غيرها في ضرورة اختيارها على ضوء كل الملاحظات المنهجية التي ذكرنا ، فلا يقرأ منها إلا ما ظهرت فائدته ، واستحق الوقت الذي سينفق عند النظر فيه.

وأما الكتب المتعلقة بالتخصص الدراسي فهذه تُختار حسب أهميتها وفائدتها في موضوع التخصص ، وهنا يجب التنبيه إلى الأهمية القصوَى التي تكتسيها متابعة الدراسة إلى مراحلها العليا والفوائد الكثيرة التي تعود على المسلم وعلى دينه معا بنجاحه في ذلك.

فمن الفوائد التي تعود عليه أَن استكماله للدراسة العليا يزيل من نفسه شيئا فشيئا عقدة الانبهار بحاملي هذه الشهادات ، ويعطيه الحق في مناقشة كتاباتهم ونقد أفكارهم وآرائهم.

وأما التي تعود على دينه فمنها ما سيقدمه بهذه الشهادة من خدمات كثيرة للدعوة.

ثالثا : وضع البرنامج :

إن وضع برنامج اليوم والأسبوع والشهر والسنة والعمر ، أمر لا غنى عنه للمسلم الذي أراد استكمال ثقافته الإسلامية في أقصر وقت ممكن ، لأَن هذا الهدف الذي يريد تحقيقه ليس محبوبا إلى النفس ، بل إنه

ثقيل عليها بغيض إليها ، ستحاول التبرم به والتنصل منه ما وجدت إلى ذلك سبيلا .

إن وجود البرنامج يشعر المسلم بالتقصير الدائم ، ويحثه على مزيد من الحزم والجدية والإحسان في تنفيذ ما تضمنه من أعمال .

وليست هناك خطوة تتلو إعداد قوائم الكتب سوَى وضع البرنامج المناسب وهذا البرنامج لا يكون خاصا بحصص القراءة فحسب بل يكون شاملا لكل نشاطات اليوم حيث تأخذ حصص المطالعة أماكنها فيه مع بقية الأعمال الأخرى .

وكل برنامج لابد أَن يشمل مجموعة من الثوابت ومجموعة من المتغيرات .

ويراعَى في كل برنامج الأمور الآتية :

1 – ان يتم تفكير عميق في النية والحكم الشرعي لكل عمل يتقرر وضعه في البرنامج ، لأنه سيتكرر مدة طويلة ، فلابد من التثبت حتَّى تصح فيه النية ويكون موافقا للشرع .

2 – أن يضع برنامجا شاملا يستوعب فيه أكبر قدر من الأعمال الصالحة ، حتَّى يُنسب صاحبه إلى تلك الصالحات كلها ، ويناذَى عليه بها يوم القيامة .

3 – أن يضع برنامجا ، كأمر إجباري ، مهما تكن ظروف حياته ومهما تكن العوائق التي تحول بينه وبين تطبيقه ، فإن التهاون في وضع البرنامج ، والاعتماد في ذلك التهاون على صعوبة تطبيقه ، حيلة من

الشيطان يقطع عليه بها الطريق نحو الحياة المنظمة التي يأخذ كل عمل فيها مكانه وفق تخطيط مدروس بعيد عن الفوضى والعشوائية والارتجال .

كل البرامج عرضة في أي وقت لتُخالف وتُعطل ، لأن الإنسان لا يملك قَدَره بيده ، لكن وجود البرنامج «بشكل رسمي» له فائدتان كبيرتان :

الأولى : أنه يقود المسلم لما ينبغي فعله عندما تكون الظروف مساعدة ومواتية .

الثانية : أنه ينال أجر النية إن فاته انجاز العمل ، فقد جاء في الحديث أن من منعه سفر أو مرض مِن عمل كان يعمله كتب له أجره كما لو كان صحيحا مقيما ، وفي الحديث أيضا أن من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة .

فليوجِد المسلم في برنامجه مكانا لما استطاع من أنواع العلم النافع والعمل الصالح ، ثم ليعمل بعد ذلك على تحقيق وانجاز ما تيسر له من ذلك .

4 – إن للظروف التي يعيش فيها المسلم دوراً كبيرا في مساعدته أو إعاقته عن وضع برنامج يناسب طموحاته ، فليجتهد في تقويم هذه الظروف وليضع برنامجه على ضوء ذلك .

5 – كل برنامج يجب أن يكون هدفه إعداد المسلم القدوة ، وان تكون هذه القدوة في العلم والتربية والدعوة ، وكل برنامج لا تأخذ فيه

هذه الأمور الثلاثة جميعها ما تستحقه من اهتمام فهو برنامج غير تام . وإذا توالت البرامج الناقصة ظهر النقص في تكوين المسلم حسب الأمر الذي كان موضع إهمال .

6 – أن يقسم البرنامج حسب الساعات لا حسب المواد . ويضع برنامجا شاملا لكل الأسبوع بلا استثناء . أي من الافاقة إلى النوم .

7 – أن يذكر مواد الإنجاز بأسمائها أو برموزها إن كانت معروفة ، ولا تترك الأمور مبهمة .

8 – أن يباعد بين ساعات المطالعة ويفصل بينها ولا يجمع ساعات طويلة في فترة متواصلة .

9 – أن يضع برنامجا معتدلا ، ويجتنب البرامج التي تجمح بها الطموحات المفرطة فإنها تفشل عند التطبيق .

10 – أن يحدد لكل برنامج أجلا تنتهي صلاحيته عنده ، وإذا انتهى جدد له مدة أخرى أو استبدله بغيره ، والمدة المتوسطة ثلاثة أشهر .

11 – أن يُحضِر ورقة كبيرة يُسَطرها حسب ساعات اليوم وأيام الأسبوع حسب النموذج الموجود بعد هذه الصفحة .

12 – أن يملأ حصص الأعمال الثابتة كالصلوات ووجبات الطعام وفترات النوم والدراسة وأشباهها .

13 – أن يملأ حصص المطالعة والحفظ وبقية الأعمال الأخرى .

الأيام	الساعات							ملاحظات
	8 — 5	10 — 8	12— 10	2— 12	4 — 2	6 — 4	11— 6	
الجمعة								
السبت								
الأحد								
الاثنين								
الثلاثاء								
الأربعاء								
الخميس								
ملاحظات								

14 - أن يعتبر البرنامج موقتا قابلا للإصلاح بعد أسبوع او أسبوعين . ولهذا يحسن كتابته بقلم الرصاص .

15 - أن يعرض البرنامج على التطبيق وينتظر أسبوعا ثم ينقحه بعد ذلك ، وعندما يجري التنقيح ، يجمع سائر التعديلات ويدخلها على البرنامج مرة واحدة ، وحتّى لا تكون التعديلات كثيرة ومتلاحقة ، يوضع البرنامج بعد تفكير طويل ، مع النظر في التجارب السابقة والظروف الواقعية المحيطة .

16 - أَن يضع لنفسه فترات استراحة بين الحصص التي خصصت في البرنامج للمطالعة . والأفضل أن تكون على رأس كل ساعة .

17 - أن يكتب في ظهر ورقة البرنامج التفصيلات التي لا يمكن كتابتها في صلبه .

18 - أن يصلي ركعتي الاستخارة ويقرأ دعاءها بين يدي الشروع في العمل بهذا البرنامج .

رابعا : تقنيات القراءة الجيدة :

إذا وُضِع البرنامج العام وشُرِع في تنفيذه يكون نصف المهمة قد أنجز . ويبقى النصف الآخر وهو حسن التنفيذ .

وبما أَن لقراءة الكتب تقنيات تعين على جودة الاستفادة ، وتقي من الطرق الرديئة في المطالعة ، فإننا سنشير إلى أهم هذه التقنيات فيما يلي :

1 - أنواع القراءة :

إن قراءة أي كتاب إما أن تكون قراءة علمية أو قراءة فضولية . فالقراءة العلمية هي القراءة الهادفة التي يرمي القارئ من ورائها إلى أهداف علمية واضحة والقراءة الفضولية هي القراءة المتقطعة التي لا يقصد منها القارئ سوى تزجية الوقت وملء الفراغ .

ثم إن القراءة العلمية إما أن تكون قراءة مع التلخيص أو قراءة مع الاقتباس أو قراءة مجردة أو قراءة مع الغير .

ا) القراءة مع التلخيص :

تصلح هذه الطريقة لقراءة الكتب التي تُقرأ لذاتها ، ولا يقصد من قراءتها استخراج معلومات محددة .

ويتم تلخيص الكتاب في ورق خاص من النوع المقوى ، ويكتب على البطاقة الأولى : بطاقة الدليل ، وفيها يسجل اسم الكتاب والمؤلف والطبعة وتاريخها ، ومؤسسة النشر ورقم الطبعة ، ويكتب في البطاقة الثانية : بطاقة الخلاصة ، وتسجل فيها عناوين الفهرست الذي في آخر الكتاب .

وتبدأ قراءةَ الكتاب بقراءة المقدمة ثم الفهرست ، وبعدهما تُقلب صفحات الكتاب وتقرأ بعض العناوين والسطور لأخذ فكرة مجملة عنه .

وتلقي بعد ذلك نظرة مجملة على الفصل الأول ، مع الانتباه أكثر

للعناوين ، لأنها تعطي فكرة عن مقومات الكتاب على ما رتبه مؤلفه ، وأهم من ذلك أنها توضح الموضوع الرئيسي في كل فصل .

وعندما تبدأ في قراءة الفصل لاحظ كل الكلمات والجمل المكتوبة بلون بارز ، وكذلك العناوين الهامشية ، وتأكد أنك فهمتها جيدا ، وليكن القصد عند قراءة الفصل أن تقف على الفكرة الأساسية في كل فقرة ، والقراءة الكثيرة هي التي تُعَلم التمييز بين الأساسي والثانوي في فقرات الكتاب .

وهذه القراءة الأولى لا تكفي عادة ، ولذلك تُتبعها بقراءة ثانية يرافقها تلخيص المهم من أفكار الفصل ، وفي التلخيص حاول أن يغلب أسلوبك ، فإذا لاحت لك ضرورة الاستعانة بأسلوب الكاتب استعن به .

وعند التلخيص تنتبه بالإضافة إلى الأفكار الرئيسية ، للتفاصيل المهمة ، وهي الحقائق والأمثلة المهمة التي تتصل بالفكرة الرئيسية وتشرحها أو تبرهن عليها ، ويمكن أن نعتبر التفاصيل التي يؤكد عليها المؤلف ويفرغ لها مجالا واسعا ، هي في الغالب التفاصيل المهمة ، وهناك سؤالان تبحث بهما عن هذه التفاصيل المهمة : أهي خير مثال على الفكرة ؟ أهي أفضل برهان عليها ؟ .

فإن سجلت في التلخيص تفصيلا واحداً لكل فكرة أساسية فهذا تلخيص نموذجي .

وهناك من يفضل قراءة الفصل ، ثم إعادته ، وإغلاق الكتاب ، ليكون التلخيص من غير نظر فيه ، وهذا يُعَوِّد الذهن الاستيعاب

السريع كما يدعو إلى مزيد من الانتباه عند القراءة . لكنْ إن فاته شيء نظره في الكتاب .

وبالممارسة يتقلص حجم التلخيصات ويتعلم القارئ حسن الانتقاء من أفكار الكتاب وقد يلخص الكتب الأولى في ثلثها ثم يلخص التي بعدها في ربعها ... حتَّى يقوى على جمع أهم أفكار الكتاب في عدد محدود من الصفحات .

والقراءة مع التلخيص أصعب وأطول من القراءة العابرة ، لكن صعوبتها لا ينبغي أن تمنعنا من تفضيلها ، فالتلخيص يساعدنا على تذكر معلومات الكتاب ، والاحتفاظ بأهم أفكاره مدونة في بطاقات ، متَى احتجنا إليها لم نلجأ إلى قراءة الكتاب من جديد ، ومن كلمات العقاد : إني أفضل أن أقرأ كتابا واحداً ثلاث مرات ، من أن أقرأ ثلاثة كتب مرة واحدة .

ب) القراءة مع الاقتباس :

ونستعمل هذه الطريقة عندما يكون المقصود من القراءة جمع معلومات معينة عن موضوع يراد تحريره .

وهذه الطريقة هي الأكثر استعمالا ، والأنسب لأغلب الكتب الإسلامية ، ولذلك لابد للقارئ أن يضع لنفسه مشروعات بحوث في مختلف فروع العلوم الإسلامية ويجعل قراءته من أجل جمع المادة العلمية لتحرير هذه الأبحاث .

والقواعد المتبعة في هذه الطريقة قواعد عامة في الأبحاث الإسلامية

وغيرها[10] سواء كان الموضوع المزمع تحريره كتابا أو مقالا أو محاضرة .

وهناك كتب مؤلفة لبيان خطوات هذه الطريقة : يجب الرجوع إليها ، للوقوف على تفصيل كل خطوة ، بدءاً من وضع التصميم الأولي للبحث ، مرورا بإعداد قوائم المراجع وقراءتها ، واقتباس ما يتصل بفصول التصميم منها وإعادة النظر في خطة التصميم ، وانتهاء بكتابة الموضوع .

جـ) القراءة المجردة :

وهي التي لا يعقبها تلخيص أو اقتباس ، وهناك أنواع من الكتب تناسبها هذه الطريقة كالمقالات الصحفية والقصص والروايات وغيرها .

د) القراءة مع الغير :

وهذه الطريقة هي المعتمدة عند علماء المسلمين وطلبتهم ، فإنهم لم يتعودوا قراءة الكتب على انفراد ، لأنها كانت مخطوطة تحتاج إلى ضبط ، ولازالت هذه الطريقة في القراءة مفيدة لأنها تَعَلُّم وتَعليم ، واختبار للمعلومات وتدريب على المحاورة والمناقشة .

وللقراءة مع الغير آفات تتجلى في ضعف التركيز وكثرة الاستطراد والشرود وعلاجها يكون بتركيز الانتباه على المقروء والجلوس لأجل القراءة بجد ومقاومة كل شرود أو استطراد يصرف عن الموضوع .

ولا نستطيع أن نفاضل بين هذه الطرق لأن كل واحدة منها تصلح لحالات ولا تصلح لأخرى وخصوصيات كل علم من العلوم

---

(10) انظر على سبيل المثال : رسالة كيف تكتب بحثا أو رسالة للدكتور أحمد شلبي .

الإسلامية ، بل وكل كتاب من الكتب الإسلامية هي التي تملي نوع الطريقة المستعملة .

2 - السرعة في القراءة :

الإسراع في القراءة يوفر الوقت ، ولذلك وجب التعود على ذلك ، وحتَّى تكون القراءة سريعة ينبغي أن تكون بالعين والقلب من غير أن ترفع بها صوتك أو تحرك شفتيك ، فالذي يحرك شفتيه أثناء القراءة قارئ بطيء .

إن الإنسان يتكلم بسرعة تتراوح بين مئة ومئة وخمس وعشرين كلمة في الدقيقة ، والقارئ المُجيد يجب أن يقرأ مئتي كلمة أو أكثر في كتاب صعب المادة ، وقد تبلغ سرعة قراءته ستمئة كلمة في الدقيقة في كتاب سهل المادة .

ومما يعين على الإسراع في القراءة التركيز والكف عن العبث باليدين والأصابع وإذا كنت تقرأ فحاول أَن يستوعب بصرك أكثر من كلمة في اللمحة البصرية الواحدة .

3 - الأوضاع البدنية عند القراءة :

خير مكان للمطالعة هو المنضدة ، والمنضدة الخالية أفضل من التي تُحشر فيها الصور والأدوات وما يشوش الذهن ويبعث على أحلام اليقظة .

أفرغ منضدتك إلا من الكتب والمذكرات المتعلقة بما أنت فيه وأشدد عضلاتك وكن يقظا مستعدا ، واجلس مستقيما ، ولا تقم إلى

فراش النوم إلا عندما تنتهي من الدراسة وتريد أن تستريح ففراش النوم لا ينسجم مع العمل الدراسي .

أما الكتب فرتبها أمامك في المنضدة ، كما ترتب في رفوف المكتبات ، ولا تضع بعضها فوق بعض ، فتضطر لبعثرتها في كل مرة .

4 – القراءة بين التكلف والهواية :

الجلوس إلى المطالعة ، وتعويد النفس على ذلك أهم خطوة تنفيذية لإنجاح البرامج الثقافية ، وكل عادة تحتاج إلى جهد وتكرار وإصرار ، خاصة إذا كانت على عكس مراد النفس ، وليس أشق على النفس من أن تحبسها على المطالعة ساعات كل يوم .

قد يحتاج المسلم إلى فترة طويلة يتكلف فيها الجلوس إلى المطالعة ويحمل نفسه على ذلك حملا ، لكنه بعد مدة يجد أن الملل قد خف شيئا فشيئا ، بل يجد أن المطالعة قد تحولت لديه إلى هواية مقدمة على كثير من النشاطات الأخرى ، وعندما يتحول عمل ما إلى هواية يقبل عليه الإنسان بشوق وشغف ، وينفق فيه الساعات من غير ضجر ولا تعب وإذا أراد من نفسه تركه لا يستطيع ، كما قال الشاعر :

يراد من القلب نسيانكم   وتأبى الطباع على الناقل

5 – التغذية الصحية والوقاية من الأمراض :

الضعف والمرض عائقان في وجه البرامج مانعان من تنفيذها ، وهذا يستلزم اهتمام المسلم بصحته وقاية وعلاجا حتّى يحفظ سلامته وعافيته .

جاء في تذكرة السامع والمتكلم :

(وأعظم الموانع ولاشك - موانع التحصيل - الانشغال بفضول الطعام والشراب ، فكثرة الأكل جالبة لكثرة الشرب وكثرة النوم والبلادة وفتور الحواس وكسل الجسم ، وكثرة التردد إلى الخلاء والأسقام ، . ولم يوصف العلماء والأئمة بكثرة الأكل قط . ولم يحمدوا بذلك وإنما تحمد به الدواب التي لا تعقل .... فكثرة الأكل والشرب والنوم ثلاثة أعداء لطالب العلم يصدونه عن مقصوده)[11] .

وهناك ملاحظات صحية عامة وأخرى خاصة بطالب العلم وعلى المسلم أن يطلع عليها في مصادرها[12] .

6 - **العطل والراحة الكافية :**

لا يخفى أن إرهاق الذهن وإتعاب الجسم بالقراءة يأتي بآثار عكسية ، فإذا تجاوز الجهد طاقتها ضعفت الاستفاذة وزادت احتمالات الضرر ، وكل امرئ طبيب نفسه فلينظر قدراته وليتعامل معها باعتدال ، وليتخذ لنفسه أوقات راحة ، تبدأ بالدقائق التي تتخلل ساعات العمل كل يوم ، وتنتهي بالاستراحة الأسبوعية والفصلية والسنوية .

7 - **تحديد مدة تقريبية لقراءة الكتب :**

إذا أردت أن تدرب نفسك على استغلال الوقت فحدد لكل مجموعة من الكتب فترة تقريبية لقراءتها ، فعند ذلك لن تُضيع من الوقت شيئا لأن كلَّ وقت يضيع منك سيؤثر على الأجل الذي حددته كمدة قصوى للفراغ من هذه المجموعة .

---

(11) ص 72 بتصرف .

(12) انظر مثلا : الغذاء لا الدواء وطبيبك معك للدكتور صبري القباني .

8 – توفير الجو الصالح للتنفيذ :

من أعظم الموانع التي تصد المسلم عن الوفاء التام بما يختطه لنفسه من برامج ، الجو العام الذي يعيش فيه ، فكثيراً ما يكون جوا معاكسا غير مناسب ، وفي هذه الحالة لا مناص للمسلم من السعي لتعديل هذا الجو أو التكيف معه بما يسمح بحد أدنَى من الالتزام بالبرنامج ، وذلك لا يكون إلا إذا كان ذا شخصية قوية تؤثر في صنع قرارها وتتمكن من اختزال كل ما يفسد البرامج المقررة .

لتكن لك رغبة شديدة في الخطو إلى الأمام ، وبسرعة تعادل طموحات برامجك والوقت الذي حددته لإنجازها .

9 – أماكن القراءة :

أماكن القراءة عديدة منها المكتبات العامة ، والمكتبات الخاصة ، والبيت والمسجد والخلاء وغيرها ، وتقسيم الأوقات على هذه الأماكن كلها أفضل ، ويراعى في هذا التقسيم أنسب وقت لكل مكان .

10 – عند توقف العمل بالبرنامج :

يعرض لطالب العلم بين الحين والحين أغراض وأشغال مخالفة لما هو مسطر في البرنامج ويجد نفسه ملزما بقضائها ، أو تعرض له أسباب توقف سيره مع البرنامج ، وفي مثل هذه الحالات عليه :

ا) أن يوجه نيته في العمل الجديد ليكون عملا صالحا ، ولا يضره حينئذ أن يكون مخالفا لما تعود القيام به في تلك الساعة ، ومتَى استيقن المسلم انتساب عمله ذاك إلى دائرة الصالحات لم يبالِ بنوعه .

ب) أن يستأنف برنامجه منذ اللحظة التي ارتفع فيها العائق العارض .

وقد ذكر الإمام عبد الرحمن بن الجوزي عن نفسه في كتابه صيد الخاطر ، أنه كان يؤجل بعض أعمال التأليف التي لا تتطلب تركيزا ذهنيا كترتيب الأوراق وتسطيرها وبري الأقلام وإعداد الحبر.... كان يحتفظ بمثل هذه الأعمال حتَّى إذا زاره الناس حدثهم وذاكرهم وشغل يديه في ذات الوقت بتلك الأعمال وكان قصده توفير الوقت الذي يكون فيه خاليا للمطالعة والتأليف .

11 – مقارنة القراءة بالعمل :

إذا وقف المسلم فيما يقرأه ، على أمر عملي يسجله في مذكرة خاصة ليعود إليه ويعمل به ، وهذه الأمور العملية كثيرة في كتب العلم الشرعي .

وهذا يحتاج إلى مذكرات بعضها لتسجيل هذه الأمور العملية كالأحكام والأدعية والأذكار وأخرى لتسجيل المسائل الغامضة قصد مراجعة أهل العلم فيها وهكذا .

13 – المحاسبة المستمرة :

لابد أَن تدخل الجوانب العلمية ضمن المحاسبة العامة التي يختم بها المسلم يومه وأسبوعه وشهره وسنته ، فلينظر في برامجه وليقارن النظرية بالتطبيق وكما تكون المحاسبة على الماضي يكون التخطيط للمستقبل ، فلابد من تخطيط متجدد عقب المحاسبة لتلافي الأخطاء وتحسين الأساليب وإدراك مراتب الكمال .

ولأن المحاسبة التي نقصد مشروحة في كتب كثيرة نحيل القارئ إليها لأخذ مزيد من التفاصيل[13].

(13) انظر ما كتبه أبو حامد عنها في الإحياء.

الفصل الخامس

مفاهيم يجب أن تصحح

هناك مجموعة من المفاهيم المتصلة بموضوع العلم وطلبه ، تحتاج إلى مراجعة وتصحيح ، لأن انتشارها أضر بالواقع العلمي والثقافي للمسلمين .

أولا :

إن تحصيل القدر الضروري من العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا يتطلب وقتا كثيراً جدّاً ، كما يتصور أكثر المسلمين ، وهب أنه يتطلب هذا الوقت الكثير ، أليس إسلام المسلم متوقفا على هذا القدر الواجب من العلم ؟ .

إن تحصيل هذا القدر الضروري الذي يصحح إسلام المسلم أمر لا يقبل التأخير، فالعقل مع الأيام يضعف، والنفس تفتر، والنسيان يزداد ، وغالبا ما يكون الذي حصله الإنسان في فترة من عمره أرسخ مما حصله في فترة بعدها ، فاستكثار الوقت واستصعاب الجهد للقدر الضروري من العلم بالكتاب والسنة أمر يجب أن يصحح :

بقدر الكد تعطَى ما تروم ومن طلب العلا ليلا يقوم

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن لكل عاصفة سكون
وأيام الحداثة فاغتنمها ألا إن الحداثة لا تدوم

ثانيـا :

إن وسائل تحصيل هذا العلم كثيرة . منها المقروءة ومنها المشاهدة ومنها المسموعة، فالمحاضرات والندوات والدروس . ومجالس العلماء . وحلقات التعليم . والمطالعة الشخصية . والمطالعة الجماعية . والدروس النظامية للعلوم الإسلامية ... كلها وسائل يمكن توظيفها والاستفادة منها . وكثير من طلاب العلم يخطئون :

أولا : عندما يكتفون في دراسة الإسلام بما يتلقونه في حصة التربية الإسلامية .

وثانيا : عندما يدرسون مواد هذه الحصة قصد اجتياز الامتحان .

وثالثا : عندما ينقطعون عن أجواء العلم بمغادرة الفصل الدراسي .

والوضع الذي يصحح هذه الأخطاء . **أن يعتبر** الطالب ما يتلقاه في الفصل عن الإسلام غير كاف ويحتاج إلى إكمال . **وأن يعتبر** الامتحان بخصوص العلوم الإسلامية أمراً ثانويا يسبقه هدف أسمَى وهو إزالة الجهل بتعاليم الإسلام واتقاء الشرور الناجمة عن هذا الجهل . **وأَن يعتبر** الفصل مكانا واحداً من أماكن عديدة للتحصيل العلمي . والمطلوب منه أن يضع نفسه في أجواء هذا التحصيل داخل الفصل وخارجه ، فيكون على صلة مستمرة **بمصادر العلم وأهله وأماكنه** وتكون له مكتبة خاصة ينميها بالكتب المختلفة ، لتكون الكتب على مقربة منه ، تغريه بالقراءة في كل وقت .

قال الإمام الشافعي :

(العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل)[1] .

ولا يكون المرء من أهل العلم حتَّى يصل هذه الرحم بغير انقطاع ،

وشرط ذلك أَن يأخذ طالب العلم أمر التحصيل بجد ، فإن احتاج إلى وقت بذله ، وان إحتاج إلى مال أنفقه ، وإن احتاج إلى سفر أمضاه ، فالعلم ليس فضلة يعطى الفضول ، ومن طلب العلم براحة الجسد فانما يمني نفسه بالمحال :

مَن طلب العلمَ وذاكره صلحت دنياه وآخرتُه
فأَدِم للعلم مذاكرة فحياةُ العلم مذاكرته
واسهر بالليل ونَاظِرْه لتعمك حقا نافحته

يُروَى عن سعيد بن المسيب أنه كان يقول :

إنْ كنتُ لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد .

وكان طلاب العلم في العالم الإسلامي يرحلون للتلقي عن الشيوخ الكبار ، ولا يقتصرون على الشيخ الواحد ، ولم تكن صعوبة المواصلات ومشقة السفر تحول دون الرحلات الطويلة إلى مراكز العلم .

وقد احتلت فكرة الأخذ عن الشيخ مباشرة أهمية كبرى في التعليم الإسلامي فكان الطالب يرحل لقراءة الكتاب على مؤلفه أو أحد تلاميذه ، ليكون ثقة في مادته وحجة في علمه .

---

(1) الاحياء جـ 1 ص 38 .

وقد أعان على هذه الرحلات إضافة إلى التوجيهات القرآنية والنبوية ، ما كان يلقاه طلاب العلم أينما حلوا وما كانوا يشعرون به من وحدة الوطن الإسلامي . وكان بعضهم يجمع بين العلم والتجارة .

وقد لعبت الرحلة في طلب العلم دوراً كبيرا في التواصل الثقافي بين أرجاء العالم الإسلامي كما كانت وسيلته للتحقيق العلمي . فكان لا يظهر كتاب لعالم من العلماء حتَّى يسارع طلاب العلم لقراءته عليه بغية الاستفادة والإسناد (2) .

ثالثــا :

إنّ العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ليس له حد . إذا بلغه أحد قال : الآن اكتفيت ، بل يطلب العلم حتَّى المات ، فإن طلب العلم عبادة والله عز وجل يقول : «واعبد ربك حتَّى يأتيك اليقين» [الحجر / 99] .

ولا يتعلم المسلم شيئا جديداً إلا اضاف به خيرا أو دفع به شرا ، ولا يشبع المسلم من خير ما عاش حتَّى يكون مثواه الجنة . ألا تَرَى إلى موسَى عليه السلام كان رسولا وكليما للرحمن ، ولما سمع بعبدٍ صالح معه علمٌ رحل إليه وتلطف له في القول فقال له :

«هل اتبعك على أن تعلمني مما عُلمت رشداً» [الكهف / 66] .

وقد سئل عبد الله بن المبارك : لو أن الله أوصَى إليك : تموتُ

---

(2) انظر مثلا الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي وكتاب : تاريخ الجامعات الإسلامية لمحمد عبد الرحيم غنيمة .

العشية ، فماذا تصنع اليوم؟ قال : أقوم وأطلب العلم .

وقيل لأبي عمرو بن العلاء : متَى يحسن بالمرء أَن يتعلم ؟ قال : مادامت الحياة ، يحسن أَن يتعلم .

ودخل فقيه على أبي يوسف يعوده في مرض موته وهو يجود بنفسه ويحتضر ، فقال له أبو يوسف : رميُ الجمار راكباً أفضل أم راجلا ؟ فلم يعرف الجواب ، فأجاب أبُو يوسف وهو على تلك الحال .

وفي معجم الأدباء لياقوت جـ 6 ص 309 : حدث الفقيه علي بن عيسَى الولواجي قال : دخلت على أبي الريحان البيروني وهو يجود بنَفَسه الأخير ، فقال لي في تلك الحال : كيف قلتَ لي يوما في حساب الجدات ؟ فقلت له – إشفاقا عليه – أفي هذه الحال ؟ فأجاب : ياهذا أَدَعُ الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ، أَلا يكون خيرا من أن أخليها وأنا جاهل بها[3] .

وليس شرطا في تحصيل العلم بالدين أَن يتفرغ طالبه ، أو يتخصص فيه فقد اعتاد كثير من العلماء الجمع بين العلم وغيره من أسباب الكسب وأنواع الحرف :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

رابعـا :

إذا قدر المسلم على تجاوز القدر الواجب من العلم الشرعي ، ومواصلة الطلب حتَّى يصير من علماء الأمة فهذا أفضل وأحسن .

---

(3) هذه الأمثلة وغيرها تجدها في هوامش كتاب تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم .

قال النضر بن شميل :

من أراد أَن يَشْرف في الدنيا والآخرة فليتعلم العلم . وكفَى بالمرء سعادة أَن يُوَثّق في دين الله . ويكونَ بين الله وبين عباده .

وقال سهل التستري :

من أَراد أَن ينظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء ، يجيء الرجل فيسأل : ما تقول يافلان في رجل حلف على امرأته بكذا وكذا ، فيقول : طُلقت امرأته ويجيء آخر فيقول : حلفتُ بكذا وكذا ، فيقول : ليس يحنث بهذا القول . وليس هذا إلا لنبي أو عالم ، فاعرفوا لهم ذلك .

وقال سفيان بن عيينة :

أَرفع الناس منزلة عند الله ، من كان بين الله وبين عباده ، وهم الأنبياء والعلماء .

وقال حمزة بن سعيد المصري :

لما حدّث أبو مسلم اللخمي أولَ يوم حدّث ، قال لابنه : كم فَضُلَ عندنا من أثمان غلاتنا قال : ثلاثمئة دينار ، قال : فرِّقها على أصحاب الحديث والفقراء . شكراً لله ، إن أباك اليوم شهد على رسول الله ﷺ فقبلت شهادته ...[4] يقصد بذلك مجلسه الأول الذي حدّث فيه .

فمَن كان قادراً على هذه المنزلة — وهذا شرفها وفضلها — فلا تقعدن به همته عنها ، ومن لم يقدر فحسبه أن يتعلم ما به ينجو ، ولهذا

(4) مفتاح دار السعادة لابن القيم .

قال علي بن أبي طالب :

الناس ثلاثة : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق[4] .

فليسائل كل مِنا نفسه : ماذا أدى من حقوق القرآن عليه ؟ وماذا أدَّى من حقوق السنة ؟ وأين هو من علومها ؟ .

فمن كان بادئا فليتم ، ومن لم يبدأ فماذا ينتظر ، والرسول ﷺ يقول :

(الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله وما والاه ، **أو عالما ومتعلما**) .

فكن عالما أو متعلما ولا تكن الثالث فتهلك ، والله يهدينا وإياك سواء السبيل .

خاتمة

سيبقَى كل ما كتبناه حبيس هذه الصفحات ما لم يكن هناك حافز قوي يدفع إلى التطبيق والعمل .

ولا يوجد دواء سحري ينشئ هذا الحافز في النفس ، لأنه أمر مرتبط بعزيمة كل إنسان غير أن كتب العلم اعتادت أَن تسرد ما جاء في فضل علم من العلوم أو عمل من الأعمال إذا أرادت أن تشجع عليه ، وهذا ما سنفعل في هذه الخاتمة ، عسَى أن نقرن كلماتها الأخيرة بتجديد العزم وشحذ الهمة والتنافس على هذا الميراث النبوي النفيس .

وأول ما نبدأ به ، هذا الأمرُ الإلهي العام :

«فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون» [النحل / 43] .

وأهل الذكر أموات وأحياء ، فسؤال الأموات منهم بقراءة كتبهم ، وسؤال الأحياء بقراءة كتبهم وحضور مجالسهم ، وسؤالهم واستفتائهم .

وأخرج مسلم مرفوعا إلى رسول الله ﷺ :

(من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة) .

فطلب العلم أحد الطرق الموصلة إلى الجنة ، أما تعليمه فقد قال ﷺ :

(إن الله وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتَّى النملة في جحرها ، حتَّى الحوت في البحر ليصُلون على معلم الناس الخير)[1] .

وقال عليه الصلاة والسلام :

(إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له)[2] .

والعالم له هذه الثلاثة جميعا ، الصدقة الجارية والعلم النافع والولد الصالح .

ومعلوم أن تعليم الغير لا يكون قبل التعلم ، فمن أراد هذا الفضل الوارد في التعليم فليتعلم أولا ، وفي الحكمة المأثورة : علِّم عِلمك من يجهل ، وتعلم ممن يعلم ما تجهل فإنك إذا فعلت ذلك عَلِمت ما تجهل وحفظت ما علمت .

(عن الشِّبلي قال :

من تصدر قبل أوانه فقد تعرض لهوانه .

ومن آفات التصدر للتعليم قبل استكمال شروطه : اللعب في الدين ، وفقدان السامعين مَن يرجعون إليه عند الاختلاف ، لأن رب الصدر (العالم) لا يعرف المصيب فينصُره أو المخطئ فيزجره .

ولبعض الشعراء في تدريس من لا يصلح :

---

(1) قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

(2) أخرجه البخاري وغيره .

تصدر للتدريس كل مهوس
جهول يسمى بالفقيه المدرس

فَحُقَّ لأهل العلم أن يتمثلوا
ببيت قديم شاع في كل مجلس

لقد هزلت حتَّى بدا من هزالها
كلاها وحتَّى سامها كل مفلس)[3]

ومما يذكره التاريخ عن حرص المسلمين على تعلم العلم ونشره وبناء جامعاته ومراكزه هذه الأمثلة المتفرقة :

يذكر ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله أن جابر بن عبد الله الأنصاري سمع أَن عبد الله بن أُنيس الجهني سمع حديثا عن رسول الله ﷺ فاشترى بعيراً ثم شد رحله حتَّى قدم مصر على عبد الله فسمع الحديث منه .

ويذكر ابن خلكان أن يحي بن يحي الليثي نشأ في قرطبة ورحل إلى المشرق وعُمره ثمانية وعشرون عاما ، فسمع من مالك الموطأ في المدينة ورحل إلى مكة فسمع من سفيان بن عيينة ورحل إلى مصر فسمع من الليث بن سعد وعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم ثم عاد إلى الأندلس .

ويذكر عن ابن الأعرابي – وكان لغويا مشهورا بالكوفة في القرن الثاني الهجري – أنه رأَى في مجلسه يوما رجلين يتحدثان فقال لأحدهما : من أين أنت ؟ قال : من اسبيجاب ، وقال للآخر : من

(3) ص 45 من تذكرة السامع والمتكلم .

أين أنت ؟ فقال : من الأندلس فعجب لذلك واسبيجاب مدينة في أقصَى بلاد المشرق من إقليم الصين أو قريبة منه .

وهذا أبو زكريا بن الخطيب التبريزي أستاذُ الأدب بالكلية النظامية ببغداد حصلت له نسخة من كتاب التهذيب في اللغة، تأليف أبي منصور الأزهري فأراد تحقيقها على الشاعر أبي العلاء المعري، فجعل الكتاب في مخلاة وحملها على كتفه من تبريز بفارس إلى المعرة بالشام، ولم يكن معه ما يُمَكِّنه من استئجار دابة يركبها فنفذ العرق من ظهره إليها ، فأثر فيها البلل ، يقول ياقوت : (وهذه النسخة في بعض المكاتب الموقوفة ببغداد إذا رآها من لا يعرف خبرها ظن أنها غريقة وليس بها سوَى عرق الخطيب)[4] .

وعن أبي حاتم قال : كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقا ، نهارنا ندور على الشيوخ وبالليل ننسخ ونقابل ، فأتينا يوما – أنا ورفيق لي – شيخا فقالوا : هو عليل فرأيت سمكة أعجبتنا فاشتريناها فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس بعض الشيوخ فمضينا ، فلم يزل لحم السمكة ثلاثة أيام ، وكاد أن ينضي فأكلناه نيئا ، لم نتفرغ لِشَيِّه ثم قال : لا يستطاع العلم براحة الجسد .

وابن أبي حاتم هو أبو محمد عبد الرحمن الحافظ الكبير صاحب كتاب الجرح والتعديل توفي سنة 327هـ[5] من التذكرة للذهبي جـ 3 ص 47 .

---

(4) نقلنا بعض هذه الأمثلة عن كتاب : مبادئ التربية الإسلامية لأسماء حسن فهمي ص 125 .

(5) نقلا عن هامش صفحة 73 من تذكرة السامع والمتكلم .

ويذكر الابشيهي في المستطرف – وكان قاضي القضاة – قال : مات لي ولد فأمرت من يتولى دفنه ، ولم أدع مجلس أبي حنيفة خوفا أن يفوتني منه يوم .

وقرأ أبو بكر بن الأخشاد في أول كتاب الحيوان للجاحظ قائمة كتبه ، ومنها كتاب اسمه : الفرق بين النبي والمتنبي : فحاول الحصول عليه دون نجاح ، فلما دخل مكة حاجا ، قام مناديا بعرفات : رحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبي والمتنبي .

فانظر إلى هذا الحرص على العلم ، كيف اغتنم اجتماع المسلمين من شتَّى بقاع العالم ليسأل عن كتاب[6] .

وأرسل بعض الخلفاء في طلب أحد العلماء ، فلما جاء الخادم وجده جالسا ، وحوله كتب وهو يطالع فيها فقال له : إن أمير المومنين يستدعيك قال : قل له : عندي قوم من الحكماء أحادثهم ، فإذا فرغت منهم حضرت ، فلما عاد الخادم إلى الخليفة وأخبره بذلك ، قال له : ويحك مَن هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده ؟ قال : والله يا أمير المومنين ما كان عنده أحد . قال : فاحضره الساعة كيفما كان ، فلما حضر ذلك العالم ، سأله الخليفة : مَن هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك ؟ فقال : يا أمير المومنين :

هُمُ جلساء ما نمل حديثهم
أمينون مأمونون غيبا ومشهدا

(6) انظر تاريخ التربية الإسلامية للدكتور أحمد شلبي فقد أورد أمثلة كثيرة في هذا الصدد .

إذا ما خلونا كان خير حديثهم
مُعينا على نفي الهموم مؤيدا

يفيدوننا من علمهم علم من مضى
ونصحا وتأديبا ورأيا مسددا

فلا ريبةٌ تُخْشَى ولا سوء عشرة
ولا نتقي منهم لسانا ولا يدا

فإن قلتَ أموات فلست بكاذب
وإن قلت أحياء فلست مفندا

فعلم الخليفة أنه يشير بذلك إلى الكتب ولم ينكر عليه تأخره[6].

وذكر الدارقطني أن الرشيد لما قدم المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام أراد أَن يَدْرُس ابناه الأمين والمأمون على الإمام مالك، فبعث إليه فقال: العلم يؤتَى أهله ويوقر فقال الرشيد: صدق، سيروا إليه فساروا فسألوه أن يقرأ هو عليهما فأَبَى وقال: إن علماء هذا البلد قالوا: إنما يُقرأ على العالم مثلما يُقرأ القرآن على المعلم[7].

وكان من مظاهر تقدير العلم في المجتمع الإسلامي تعظيم أهله، وإكرام حملته.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أنا عبد من علمني حرفاً واحداً، إن شاء باع وإن شاء أعتق وإن شاء استرقّ.

(7) شرح البخاري للكرماني جـ 2 ص 16.

وحُكي أن هارون الرشيد بعث ابنه إلى الأصمعي ليعلمه العلم والأدب، فرآه يوما يتوضأ ويغسل رجليه، وابن الخليفة يصب الماء عليها، فعاتب الخليفةُ الأصمعي في ذلك بقوله: إنما بعثته إليك لتعلمه وتؤدبه، فلماذا لم تأمره بأن يصب الماء باحدَى يديه، ويغسل بالأخرى رجليك.

وكان من مظاهر توقير الطلبة لأساتذتهم، أنهم لا يردون لهم أمراً، اتخذوهم آباء لهم، واتخذهم أساتذتهم أبناء.

يذكر أن البخاري رضي الله عنه كان بدأ بكتاب الصلاة من الفقه على محمد بن الحسن فقال له محمد: اذهب وتعلم علم الحديث لمّا رأى أن ذلك العلم أليق بطبعه فعمل بوصية أستاذه فصار أمير المومنين في الحديث[8].

وقال الشافعي:

كنت أقلب الورق بين يدي مالك تقليبا رقيقا هيبة أن يسمع وقعه.

وقال الربيع:

والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي هيبة منه.

وقد أورثهم هذا الإخلاص وهذا الحرص وهذا التوقير ذكاء خارقا وقوة حفظ عجيبة.

ذكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد جـ 2 ص 20 - 21: (ان البخاري رحمه الله لما دخل بغداد أراد أصحاب الحديث فيها أَن

---

(8) تعليم المتعلم طريق التعلم لبرهان الدين الزرنوجي ص 21.

يمتحنوه ليعرفوا مدَى ما عليه من الحفظ والدراية فعمدوا إلى مئة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها ، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر ، وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوا إليه عشرة أنفس إلى كل رجل عشرة أحاديث ، وأمروهم أن يلقوا ذلك على البخاري ، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب إليه رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث فقال البخاري : لا أعرفه ... فلما علم البخاري أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول منهم فقال : أما حديثك الأول فهو كذا ، وحديثك الثاني فهو كذا ... حتَّى أتَى على تمام العشرة ، فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه .

وكان ابن تيمية رحمه الله يحفظ نصوصا مطولة من كتب مختلفة ، وكان يثبتها من حفظه وعند المقابلة والتحقيق وجدت كما هي في أصولها ، أما الحديث فقد قال بعض علماء الشأن : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث .

وكان ابن القيم يستظهر المُسْند ، وألّف زاد المعاد وهو على سفر ليست معه كتبه ومراجعه .

وكان أبو بكر بن الأنباري (ت 327هـ) يحفظ ثلاثمئة ألف بيت من الشعر وكان لا يملي إلا من حفظه ، ولما مرض انزعج عليه أبوه انزعاجا عظيما فطيبوا نفسه فقال : كيف لا أنزعج وهو يحفظ جميع ما ترون ، وأشار إلى خزانة مملوءة كتبا) .

أما مَن حفظ القرآن الكريم في ست سنين وسبع سنين ومن حفظه في أقل من سنة فكثيرون .

ولاشك أن سر هذه القدرات يرجع إلى النوايا التي طلبوا بها هذا العلم والمقاصد التي من أجلها نشروه ، لقد كانوا يعبدون الله تعالى بالأمرين .

ولقد كانوا يُحْدِثُون لكل علم يتعلمونه شكراً فيزيدهم عز وجل علما آخر .

والله سبحانه قادر أن يمنحنا من العون والسداد ما منح هؤلاء السلف ، إذا عملنا مِثْلهم ، وسيكون ذلك أول الطريق ليصلح آخر هذه الأمة بما صلح به أولها .

الفهرس